الشيعة

هاينس هالم

علي ولي الله

ترجمة: محمود كبيبو

Heinz Halm

DIE SCHIITEN

The original Publishers's

Verlag C.H. Beck oHG, Munsehen 2005

ISBN: 9783406508585

First edition in Arabic by Alwarrak Publishing LTD

2011

ISBN: 9781900700993

The Publication of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut Inter nationes

ساهمت مؤسسة غوتا ـ إنترناسيونس مشكورة في بعض تكاليف هذه الترجمة

الشيعة

تأليف
هاينس هالْم

ترجمة
محمود كبيبو

* اسم الكتاب: الشيعة.

* المؤلف: هاينس هالْم

* ترجمة: محمود كبيبو

* الطبعة الأولى لشركة الوراق للنشر المحدودة: **2011** .

* جميع الحقوق محفوظة لشركة الوراق للنشر المحدودة.

* تصميم الغلاف: شركة الوراق للنشر المحدودة.

WWW.alwarrakbooks.com

ISBN: 9781900700993

التوزيع

Alwarrak Publishing Ltd.

26 Eastfields Road

London W3 0AD - UK

Fax: 0044 208-7232775

Tel: 0044 208-7232775

warraklondon@hotmail.com

الفرات للنشر والتوزيع

بيروت ـ الحمرا ـ بناية رسامني ـ طابق سفلي أول

ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان

هاتف: 00961-1-750054

فاكس: 00961-1-750053

e-mail: info@alfurat.com

بيت الورّاق

للطباعة والنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ تلفون: ٠٠٩٦٤٤٧٧٠٢٧٤٩٧٩٢ ـ ٠٠٩٦٤٧٨٠١٣٤٧٠٧٦

المحتويات

الفصل الأول
الأئمة الاثنا عشر

الفصل الثاني
مواكب العزاء والمآتم

الفصل الثالث
إسلام الملالي

الفصل الرابع
الشيعة الثورية

الفصل الخامس
شيعة خارج إيران

مشجرة نسب الأئمة

النبي محمد

فاطمة — 1 ـ علي بن أبي طالب (توفي 661م ـ 40هـ)

2 ـ الحسن

3 ـ الحسين (توفي 680م ـ 61هـ)

4 ـ علي زين العابدين (توفي حوالي 713م ـ 95هـ)

زيد

5 ـ محمد الباقر (توفي حوالي 733م ـ 114هـ)

6 ـ جعفر الصادق (توفي 765م ـ 148هـ)

عبد الله

اسماعيل

7 ـ موسى الكاظم (توفي 799م ـ 183هـ)

8 ـ علي الرضا (توفي 818م ـ 203هـ)

9 ـ محمد التقي (أو الجواد) (توفي 835م ـ 220هـ)

10 ـ علي الهادي (توفي 865م ـ 254هـ)

11 ـ الحسن العسكري (توفي 873م ـ 260هـ)

12 ـ محمد المهدي، الإمام المنتظر

نبذة عن حياة المؤلف

هاينس هالم ولد عام (1942 ـ . . . .)

مستشرق ألماني

درس العلوم الإسلامية، والسامية، والعصور الوسطى.

يُدرِّس العلوم الإسلامية في جامعة توبنغن ـ ألمانيا.

له عدة مؤلفات وأبحاث منها: بحثان مطولان:

ـ كونيات وعلم الخلاص لدى الإسماعيليين الأوائل (1978).

ـ كتاب الأظلة (1978 ـ 1981).

نشر مقالاته وأبحاثه في عدة دوريات منها:

ـ عالم المشرق، والإسلام.

كما نشر العديد من الكتب المختصة: منها:

«الشيعة» (1988)، «الإسلام الشيعي من الدين إلى الثورة» (1994)، «الفاطميون وتقاليدهم في التعليم (1997)، «إمبراطورية المهدي ـ صعود الفاطميين»، «الإسلام ـ ماضي وحاضر» (2000)،

«العرب» (2004)، «الإسلام» الطبعة الخامسة (2004)، الغنوصية في الإسلام (1982 ـ 2002).

وهو المشرف على إصدار «تاريخ العالم العربي» (الطبعة الخامسة 2004).

يتولى هاينس هالم منصب أُستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة توبنغن الألمانية. وقد صدر له حتى الآن عدة كتب ودراسات عن العالم العربي والإسلامي: «إمبراطورية المهدي ـ صعود الفاطميين» (1991)، «العرب» (2004)، «الإسلام» (الطبعة الخامسة 2004) «الشيعة» (2005). وهو المشرف على إصدار «تاريخ العالم العربي» (الطبعة الخامسة 2004).

مقدمة

لم يمض سوى 25 سنة(*) على دخول الشيعة إلى وعي قطاع عريض من أوساط الرأي العام العالمي وذلك عندما أسقط الثوريون الشيعة سنة 1979 شاه إيران وأسسوا جمهورية إيران الإسلامية ودخلوا في الوقت نفسه في صراع مع الغرب. وبعد وقت قصير حدثت نزاعات أُخرى في الشرق الأوسط كان الشيعة منخرطين فيها: الحرب الأهلية في لبنان التي تدخل فيها الشيعة عسكرياً بعد الغزو الإسرائيلي سنة 1982؛ والحرب الأهلية في أفغانستان التي كان يشارك فيها مجاهدون شيعيون أيضاً؛ والنزاع حول جبل قره باغ الذي وقف فيه أرمن شيعيون في مواجهة آذربيجانيين شيعيين؛ ثم ثورات الشيعة في جنوب العراق ضد صدام حسين بعد حرب الخليج الثانية 1991 وبعد 1999. وبعد سقوط صدام حسين نتيجة التدخل الأمريكي البريطاني سنة 2003 اتضح فجأة أن الشيعة يشكلون أكثرية سكان العراق وأنه من حقهم المطالبة بحصة مناسبة من السلطة في الدولة العراقية المستقلة المقبلة.

وبينما برز الشيعة إلى الواجهة كقوة سياسية فاعلة، بقيت معتقداتهم وتقاليدهم الدينية، التي يزيد عمرها على 1300 سنة، إلى

(*) صدر الكتاب الأصلي عام ٢٠٠٥. [الناشر].

حدٍّ كبيرٍ خارج دائرة الضوء. في أحسن الأحوال كان الناس يرون صور الرجال الذين يضربون أجسادهم بالسياط حتى الإدماء ويجرحون جباههم بالسيوف. كانت هذه الصور المزعجة توحي بتصورات عن شيء غريب كليّاً وغير مفهوم يوصف بأنه سلوك «صوفي» أو «غير عقلاني». وبدا المذهب الشيعي كحركة خطيرة بشكل خاص من الإسلام الموصوف في كل الأحوال بأنه متعصب. لكن ما بقي دون توضيح كان العلاقة بين عقيدة الشيعة والنهوض الثوري الذي أبدوه سنة 1978/ 1979 وإن كانت مثل هذه العلاقة تعتبر بصورة عامة أمراً بديهياً:

فقد كان يبدو آنذاك أن الذي فجّر الثورة في إيران هو الإسلام الشيعي وليس، مثلاً، الإيرانيون الذين يعتنقون بالصدفة العقيدة الشيعية.

في هذه الأثناء تراجعت بعض الشيء الحملة الشعواء على الشيعة ووصمهم بكثير من الصفات الشيطانية والتي انتشرت في الغرب على نطاق واسع في عز أيام الثورة الإيرانية. لا بل إن ثورة الشيعة العراقيين ضد صدام حسين أدت في بعض الوقت إلى اختلاط صور العدو والصديق في أذهان وسائل الإعلام الغربية وإن كانت ما لبثت أن فرضت نفسها بعد وقت قصير على مواقف السياسيين والمعلقين الغربيين الصورة القديمة المتمثلة في الخوف من التوسع الشيعي: فقد كانوا يفضلون صدّاماً ضعيفاً، لكنه محافظ على وحدة العراق، على دولة شيعية في جنوب العراق يهيمن عليها الإيرانيون. وبعد سقوط الدكتاتور لم ينعدم تماماً ما يساور المراقبين الغربيين من

شكوك. صحيح أنهم يميزون الآن بين زعماء شيعة «متطرفين» وزعماء شيعة «معتدلين» لكن المخاوف المبهمة من عواقب استيلاء الشيعة على السلطة في العراق لم تزل قائمة.

إلا أن موضوع هذا الكتاب ليس الثورة الإيرانية ولا السياسة في الشرق الأوسط بصورة عامة وإنما المذهب الشيعي. غير أن التشابك الوثيق بين الدين والسياسة في الشرق الأوسط يدعونا مرة بعد أُخرى إلى وضع الأحداث السياسية في مركز البحث. من الطبيعي أن الثورة الإيرانية تشكل أيضاً جزءاً من تاريخ الإسلام الشيعي وبالمقابل فإن الأحداث الجارية في إيران تبقى دون معرفة المذهب الشيعي غير مفهومة. ومن الملاحظ في هذا الصدد أن الأحداث السياسية تؤدي إلى تحولات في الدين أيضاً وتدفع تطوره التاريخي نحو الأمام.

والشيعة قديمة قدم الإسلام. لكنها كانت على الدوام أقلية وغالباً في المعارضة، وكانت بين حين وآخر تتعرض للملاحقة والاحتقار والقمع. ولقد كان لتاريخها تأثير بالغ على نظرتها إلى العالم وعلى موقفها من السياسة والمجتمع، ولم يزل هذا الموقف حتى اليوم يتجلى في النزاعات السياسية الدائرة في المنطقة.

نشأ المذهب الشيعي في العراق الذي لم يزل حتى اليوم أحد البلدان الأساسية للإسلام الشيعي. ففي العراق وقعت الأحداث الحاسمة في تاريخ الألم الشيعي وفيه توجد الأضرحة المقدسة لستة من الأئمة الاثني عشر، وهنا تطورت علوم الدين الشيعية في العصر الوسيط. فالشيعة هي إذاً في الأصل ظاهرة عربية كالإسلام نفسه

والجزء الأكبر من مراجعها مكتوب باللُّغة العربية، ومن مؤلفين إيرانيين أيضاً؛ لم تزل اللغة العربية حتى اليوم اللغة المعتمدة لدى علماء الدين الشيعة في جميع أرجاء العالم. أكثر من نصف العراقيين شيعة، وهم يعيشون بصورة رئيسية في جنوبي البلاد (نحو 15 مليوناً). أما في إيران فقد بدأ انتشار المذهب الشيعي مع تأسيس المستعمرة العربية قم في القرن الثامن الميلادي، لكن الشيعة بقوا هناك فترة طويلة من الزمن أقلية. وكانت جماعاتهم موجودة بالدرجة الأولى في المدن الواقعة في شمال غرب إيران. ومع استيلاء أسرة شيعية على الحكم في سنة 1501 بدأت في إيران سياسة منهجية للتشيع اكتملت في أواخر القرن السابع عشر. وشملت هذه الموجة أيضاً سكان آذربيجان الناطقين باللغة التركية: أكثر من 6 ملايين آذربيجاني في جمهورية آذربيجان الحالية، السوفييتية سابقاً، (ثلاثة أرباع السكان) و15 مليون آذربيجاني في المقاطعة الشمالية من إيران والتي تحمل نفس الاسم هم من الشيعة. أما في إيران فيشكل الشيعة 85% من السكان (نحو 57 مليوناً)، وهي بذلك أعلى نسبة للشيعة في جميع البلدان الإسلامية. ويعود وجود الشيعة في جنوب لبنان وفي سهل البقاع اللبناني إلى القرن العاشر الميلادي. وهم يشكلون اليوم من الناحية العددية أهم جماعة دينية في البلد (1,7 مليون). وهناك شيعة أيضاً في البلدان العربية الواقعة على الجانب الغربي من الخليج وفي المملكة العربية السعودية وفي الدولتين الخليجيتين الصغيرتين الكويت والبحرين (نحو 2,4 مليون في البلدين)[1]. وفي أفغانستان

(1) هناك خطأ بالتقدير حيث إن سكان هاتين الدولتين لا يتجاوز المليون إنسان [الناشر].

يتألف الهزارة المنغوليون في المناطق الجبلية الوسطى من الشيعة، وفي شبه القارة الهندية توجد جزر كبيرة معظم سكانها من الشيعة، وفي البنجاب الباكستاني وفي الهند حول أرض شمال الغانج وحول حيدر آباد في دكّان الأوسط وكذلك في كشمير المتنازع عليها بين الهند وباكستان يوجد سكان شيعة. إلا أنه لا يوجد تقديرات موثوقة عن عدد الشيعة الهنود. وبذلك فإن عدد الشيعة جميعاً في البلدان الإسلامية الأساسية يزيد على 120 مليوناً. ويشكل هذا العدد نحو عُشر المسلمين الموجودين في العالم. لكن الشيعة الذين يعيشون متفرقين في مختلف أرجاء العالم لا يدخلون في هذا العدد. فالمناطق التي يقطنها الشيعة لا تشكل وحدة مترابطة، كما أن الشيعة ينتمون إلى جماعات عرقية ولغوية مختلفة. فهم من العرب والفرس والأتراك والآذربيجانيين والهزارة المنغوليين والهنود.

عندما نتكلم في هذا الكتاب عن الشيعة فإننا نعني بذلك دوماً الشيعة «الإمامية» أو «الاثني عشرية» الذين كانوا يتصدرون نشرات الأخبار بسبب الأحداث السياسية في السنوات الأخيرة. أما الطوائف الشيعية الصغيرة كالإسماعيليين أتباع آغا خان، والبهرة الهنود، والزيديين اليمنيين، والعلويين السوريين، والدروز، فلن يشملهم البحث في هذا الكتاب. سنسلط الضوء بشكل خاص على شعائر الرثاء والألم التي تشكل نواة التدين لدى الشيعة الاثني عشرية والتي لا يمكن فهم تصوراتهم الدينية الحقيقية إلا عبرها وحدها.

الفصل الأول

الأئمة الاثنا عشر

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (656 ـ 661م/35 ـ 40هـ)

عندما عاد النبي محمد في مارس/آذار سنة 632 من حجته الأخيرة من مكة إلى المدينة استراحت قافلته عند غدير خم في منتصف الطريق تقريباً بين المدينتين. ويقال بأنه قد حدث هنا في 16 مارس/ آذار المشهد التالي الذي لم يزل الشيعة حتى اليوم يحتفلون به كعيد من أعيادهم الدينية: فقد جمع النبي أتباعه من حوله وقال: «**ألستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟** قالوا: بلى، يا رسول الله. فقال: «**من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**».

كلا القولين يحتملان في النص العربي الأصلي عدة معان. ونحن نضع هنا باللغة الألمانية المعنى الذي يعتمده الشيعة. ويوضح معلق شيعي هذا المعنى بقوله: «عندما يطلب النبي بهذه الطريقة الطاعة تجاه عليٍّ ويجعله مولى المسلمين فإنه يمنحه نفس المكانة التي كان هو نفسه يحتلها تجاههم. وقد أمرهم بأن يعترفوا بذلك وهم لم يرفضوا الاعتراف. وهذا نص صريح وواضح على تعيين عليٍّ إماماً وخليفة».

كلمة «إمام» العربية تعني «رئيس الجماعة» أو «زعيم الأمة» وهي مشتقة من نفس الجذر الذي اشتقت منه كلمة «أُمة». أما كلمة «خليفة» فتعني «النائب» أو من يخلف غيره ويقوم مقامه. وحسب التفسير الذي يعتمده الشيعة للمشهد الذي حدث عند غدير خم فإن النبي الذي كان يعرف قرب وفاته عيّن عليّاً خليفة له ورئيساً للأمة الإسلامية.

علي بن أبي طالب هو ابن عمّ النبي أبي طالب. وكان محمد الذي تيتم في وقت مبكر قد انتقل إلى بيت عمّه هذا ونشأ فيه. وفي وقت لاحق عندما ضاقت أحوال عمّه أخذ محمد ابن عمّه عليّاً إلى منزله لكي يخفف عن عمّه بعض الأعباء المادية. ويذكر أن علياً كان ـ بعد زوجة محمد الأولى خديجة ـ أول من آمن بالرسالة التي جاء بها النبي محمد أي الإسلام. وعندما أجبر محمد في سنة 622 على ترك مكة والهجرة إلى المدينة تبعه علي إلى هناك بعد وقت قصير. وحسب الرواية الشيعية وفر علي غطاء لهروب محمد خفية من مكة وذلك بأن ارتدى ثيابه ونام في سريره بحيث إن المكيين الذين اقتحموا حجرة نوم النبي لكي يقتلوه دهشوا عندما رأوا عليّاً في السرير وبذلك فشلت خطتهم.

خلال الأعوام العشرة التي وضع فيها محمد في المدينة أُسس الدولة الإسلامية (622 ـ 632) كان ابن عمّه علي أقرب الناس إليه وبزواجه من ابنته فاطمة أصبح صهره أيضاً. وعندما دخل النبي إلى مكة بعد فتحها سنة 630 كان علي ـ حسب الرواية الشيعية ـ حامل الراية. وكان هو الذي فتح اليمن ونشر فيه الإسلام، وعندما قام النبي بآخر غزوة له ضد واحة تبوك في شمال شبه الجزيرة العربية (خريف سنة 630) عيّن علياً نائباً عنه (خليفة) في المدينة.

مع ذلك فعندما توفي النبي في 8 يونيو/ حزيران 632 لم يعيِّن عليٌّ خليفة له وإنما رفيقهُ القديم أبو بكر الذي كان قد رافقه خلال خروجه إلى المنفى وهجرته إلى المدينة. وعندما توفي أبو بكر بعد سنتين فقط من الحكم اختير صحابياً آخر من رفاق محمد ليكون خليفة له وهو عمر. وخلال خلافة عمر التي دامت عشر سنوات (634 ـ 644) بدأ التوسع العسكري للإمبراطورية العربية باسم الإسلام على حساب القوتين العظميين آنذاك، الأمبراطورية الرومانية البيزنطية والإمبراطورية الفارسية الساسانية. خلال أعوام قليلة من فتح فلسطين وسورية ومصر وبلاد الرافدين أي العراق.

بعد وفاة عمر تشكل مجلس للشورى مؤلف من ستة أشخاص لكي يختار خليفة جديداً، فاختار عثمان بن عفان الذي ينتمي إلى عائلة أمية المكية. وكان علي أيضاً عضواً في المجلس الانتخابي كواحد من صحابة النبي الأكثر نفوذاً والأعلى مكانة. كان عمره آنذاك 46 عاماً (ولد في سنة 598). لم يعترض علي على انتخاب عثمان ولكن يبدو أنه لم يكن موافقاً عليه. وقد أدى هذا التناقض بين الرجلين إلى حدوث توترات أدت خلال وقت قصير إلى صراعات دامية وإلى انشقاق الأمة الإسلامية. صحيح أن عثمان كان أيضاً من صحابة النبي ومن الذين حاربوا معه ضد معارضيه لكنه كان يمثل عائلة أُمية وبالتالي الأرستوقراطية المكية التي ظلت زمناً طويلاً على دين الشرك ونغّصت حياة محمد في مكة. وها هي تدخل بعد ذلك في الإسلام ـ كمن يلتحق بالقطار المسافر في آخر لحظة ـ وتسعى إلى استعادة زعامتها في إطار المجتمع الإسلامي الجديد. أما علي فكان يمثل مسلمي الساعة الأولى، المهاجرين الذين عاشوا في

المنفى في المدينة أو الذين يمكن تسميتهم نبلاء الدين الأوائل الذين اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر وهاجروا إلى المدينة وكان لهم الفضل في نجاح الدعوة.

تطورت هذه التوترات داخل الأُمة الإسلامية إلى صراع مكشوف في سنة 656م أسفر عن قتل الخليفة عثمان في منزله في المدينة على يد مجموعة من المتمردين. بعد مقتل عثمان اختارت المعارضة علياً خليفة للمسلمين. وفي 17 يونيو/ حزيران 656م أعلنت خلافته رسمياً في مسجد المدينة على أرض البيت السابق للنبي محمد. وحسب رأي الشيعة تولى أخيراً الحكم الخليفة الشرعي الوحيد للنبي محمد. أي إن الشيعة لا يعترفون بشرعية الخلفاء الثلاثة الأوائل. فهم يعتبرون أبا بكر وعمر وعثمان مغتصبين للخلافة. بالنسبة لهم كان علي منذ وفاة محمد الخليفة الشرعي والإمام. وهناك تعليق شيعي يقول: «بعد وفاة محمد تولى علي على مدى ثلاثين عاماً منصب الإمام لكنه ظل 24 عاماً وستة أشهر غير قادر على استلام مقاليد الحكم وتعين عليه خلال هذه الفترة ممارسة «التقية» والتظاهر بالرضى اتقاءً للشرِّ». ويفسر الشيعة غالباً سكوت علي بأنه جزء من خطة إنقاذ إلهية: إذ إن اغتصاب الخلفاء الثلاثة الأوائل للحكم كان مقدراً مسبقاً وكان الله يريد من وراء ذلك امتحان الأمة لكي يفرق المؤمنين الحقيقيين عن المنافقين.

كانت خلافة علي القصيرة (656م ـ 661م/ 35 ـ 40هـ) مليئة بالصراعات الدامية التي تحطمت فيها وحدة الأُمة الإسلامية بعد عقدين فقط من وفاة محمد. فلم يعترف الجميع بخلافة علي مما

اضطره إلى الانتقال من المدينة إلى العراق حيث اتخذ من مدينة الكوفة الواقعة على نهر الفرات، والتي بنيت كمعسكر للجيش العربي خلال فترة الفتوحات، مقراً له. أما خصمه الرئيس فكان والي سورية معاوية بن أبي سفيان من عائلة أُمية وهو من أقرباء الخليفة المقتول عثمان ولذلك وقف ضد علي مطالباً بالثأر لدم عثمان. إلى جانب التوترات المذكورة داخل الأمة تدخلت في هذا النزاع التناقضات الإقليمية: وقف عرب سورية ضد عرب العراق، دمشق ضد الكوفة. في موقع صفين على ضفة الفرات الأعلى (في منطقة بحيرة الأسد حالياً في سورية) وقف الجيشان في صيف 657 عدة أسابيع مقابل بعضهما البعض دون الدخول ـ رغم العديد من المناوشات المتفرقة ـ في معركة حاسمة. وفي نهاية المطاف اتفق الطرفان على تشكيل لجنة تحكيم اجتمعت، على الأرجح، في بداية سنة 659 في بلدة عضروه (الواقعة في الأردن الحالي بين البتراء ومعان). لم يعد من الممكن أن نعرف اليوم ما الذي اتفق عليه الحكمان هناك لأن الروايات المتناقلة متناقضة جداً. وعلى أي حال فقد اعتبر معاوية قرار التحكيم لصالحه وأعلن مبايعة الناس له خليفة في صيف 660م في القدس. فاعترف به على نطاق واسع وبذلك أصبح انقسام الأُمة الإسلامية أمراً واقعاً.

بعد نصف عام من ذلك التاريخ، في نهاية يناير/ كانون الثاني 661، 19 رمضان 40 هـ اغتيل علي عند باب أحد مساجد الكوفة[1] على يد شخص اسمه ابن ملجم طعنه عدة طعنات مما أدى إلى وفاته بعد يومين عن عمر ناهز الثانية والستين أو الثالثة والستين. وهكذا

(1) اغتيل في داخل مسجد الكوفة وهو يصلي بالمحراب [الناشر].

راح الإمام الأول للشيعة ضحية عملية اغتيال وكان بذلك الشهيد الأول في سلسلة طويلة من شهداء الشيعة.

كلمة «شيعة» العربية تعني «الحزب» أو «الفرقة». وقد أُطلق اسم «شيعة علي» على الناس الذين وقفوا معه في نزاعه ضد معاوية والسوريين. وبعد اغتياله بقي هذا الحزب قائماً وأصبحت الكوفة الواقعة على نهر الفرات أهم موقع له. ففي الكوفة كان يعيش رفاق علي في موقعة صفين وفيها كان الناس يأملون في أن أحد أبنائه سيحمل الراية من بعده ويقلب الصفحة من جديد. إذ إن العراقيين كانوا مستائين جداً من الولاة الذين كانت ترسلهم دمشق، العاصمة الجديدة للخلافة الإسلامية.

في ذلك الوقت لم تكن المقاومة الشيعية قد اتخذت بعد طابعاً دينياً متميزاً. فقد كانت مجرد حزب في الصراع على السلطة، في بادىء الأمر في جيل صاحبي النبي (علي ومعاوية) وبعد ذلك في جيل أبنائهما. بالنسبة للشيعة كان علي الخليفة الشرعي الوحيد للنبي محمد ولذلك فهو الوحيد الذي يحق له حمل اللقب العسكري «أمير المؤمنين». وهذا هو الاسم الذي يطلقه الشيعة غالباً على علي هاملين اسمه الأصلي، وكعلامة على سلطته وحقه في إعطاء الأوامر أنه ورث سيف النبي المسمى «ذو الفقار» الذي يظهر دائماً في الصور التي تعبر عنه. وبعد وقت قصير بدأ أنصار علي يعطون صورته طابعاً مثالياً وينسجون حوله الأساطير: فهو بالنسبة للشيعة النموذج الخالص للبطل الشاب. فهم يروون بكل سرور كيف أبدى عند حصار خيبر قوة خارقة وانتزع باب المدينة من أركانه واستعمله ترساً ثم رماه في

الخندق. ويعدّ علي بليغاً جداً باللغة العربية. فالخطب والرسائل المنسوبة له والتي جُمعت في وقت متأخر جداً (وهناك خلاف على أصالتها)[1] لم تزل تعتبر حتى اليوم نموذجاً للبلاغة في النثر العربي كما أن عملية دفنه تتخللها المعجزات: بناء على طلبه قام ابناه الحسن والحسين وبعض أتباعه بحمله على نعش والذهاب إلى الصحراء إلى أن وصلوا إلى صخرة بيضاء كانت تشع نوراً. هناك حفروا قبراً فعثروا على لوحة كُتب عليها: «هذا القبر حفظه نوح لعلي ابن أبي طالب». وفي موقع القبر ينتصب اليوم الضريح المقدس في النجف.

تنازل الحسن (661م/40 هـ)

خلّف علي عدة أبناء من بينهم اثنان من زواجه من فاطمة ابنة النبي. كان الأكبر سناً، الحسن، في السادسة والثلاثين أو في السابعة والثلاثين عند وفاة أبيه. وكان في وسعه لو طالب بحقّه في الخلافة الاعتماد على تأييد أنصار أبيه الكوفيين، أي على تأييد الشيعة. وبالفعل فقد أُعلن خليفة، ولكن عندما وصل معاوية على رأس الجيش السوري إلى العراق أبدى كثيراً من التردد وعدم التصميم. ولذلك جرت مفاوضات في المدائن الواقعة على نهر دجلة انتهت بتنازل الحسن عن الخلافة. ومما سهّل على حفيد النبي اتخاذ هذا القرار منحه مبالغ كبيرة من المال بالإضافة إلى العائدات الخراج

(1) المقصود كتاب نهج البلاغة، أشرف على إخراجه وطبعه في العصر الحديث العالم المصري محمد عبده عام 1905. [الناشر].

لمنطقة إيرانية كاملة. وهكذا استطاع معاوية الدخول إلى الكوفة عاصمة العراق. كما أن الحسن جاء إلى المدينة وأكد في مسجدها مرة أخرى علناً تنازله عن الخلافة، الأمر الذي شكل خيبة أملٍ كبيرةٍ لشيعة علي. بعد ذلك عاد الحسن إلى المدينة وعاش هناك حتى وفاته كرجل ثري محترم دون أن يتدخل إطلاقاً في الشؤون السياسية. والشيء الوحيد الجدير بالملاحظة الذي ترويه عنه المصادر التاريخية أنه كان كثير الزواج وأنه خلّف عدداً كبيراً من الأولاد. وحتى سنة وفاته غير معروفة. ويعتقد أنه توفي بين سنة 670م وسنة 680م ودفن في مقبرة البقيع في المدينة.

بالنسبة للشيعة يعدّ الحسن الخليفة الشرعي لأبيه علي والإمام الثاني حتى وفاته. أما أن يكون قد اضطر للرضوخ لمعاوية فهو أمر يفسره الشيعة بأن الإمام أراد، نظراً لتفوق السوريين عسكرياً، تفادي الدخول في معركة خاسرة سلفاً وبالتالي حقن دماء المسلمين. فهو تحاشى العنف دون أن يتخلى عن حقوقه. ومثل جميع الأئمة الآخرين يعتبر الحسن أيضاً شهيداً عند الشيعة: إذ يقال إن إحدى زوجاته قتلته بالسمِّ بناء على دسيسة من معاوية.

مأساة كربلاء (680م / 61 هـ)

في ربيع سنة 680م توفي الخليفة معاوية في دمشق بعدما كان قد حمل الناس على مبايعة ابنه يزيد خليفة له. وبتولي يزيد الخلافة وصل إلى الحكم رجل لم يتعرف على النبي محمد شخصياً. وفي الوقت نفسه كانت خلافته لأبيه تعني ترسيخ مبدأ الحكم الوراثي: وقد ظلت الأسرة الأموية حاكمة في دمشق حتى سنة 750م. وكان

تبدل الحاكم في دمشق الإشارة التي جعلت أتباع علي العراقيين يحاولون مرة أخرى انتزاع السلطة. في ذلك الوقت كان الحسين، الابن الثاني لعلي، والذي كان يعيش في المدينة، في الرابعة والخمسين من عمره. فتوجه رسل من الكوفة إلى المدينة وطلبوا منه المجيء إلى العراق لقيادة الشيعة وإسقاط نظام الحكم السوري. فأرسل الحسين ابن عمّه مسلماً إلى الكوفة لكي يستطلع الوضع، فكتب له مسلم أن الوضع مناسب وقال إن الآلاف من أنصار الشيعة مستعدون للمشاركة في ثورة على الحكم الأموي. وعلى الرغم من أن الحسين حُذّر من هذه المغامرة غادر في سبتمبر/ أيلول 680م مكة سراً حيث كان يؤدي فريضة الحج وتوجه إلى العراق على طريق الحج التي تمر عبر الصحراء في وسط شبه الجزيرة العربية. ورافقه في رحلته أسرته ونفر من أقربائه وأصدقائه المقربين لا يتجاوز عددهم الخمسين شخصاً.

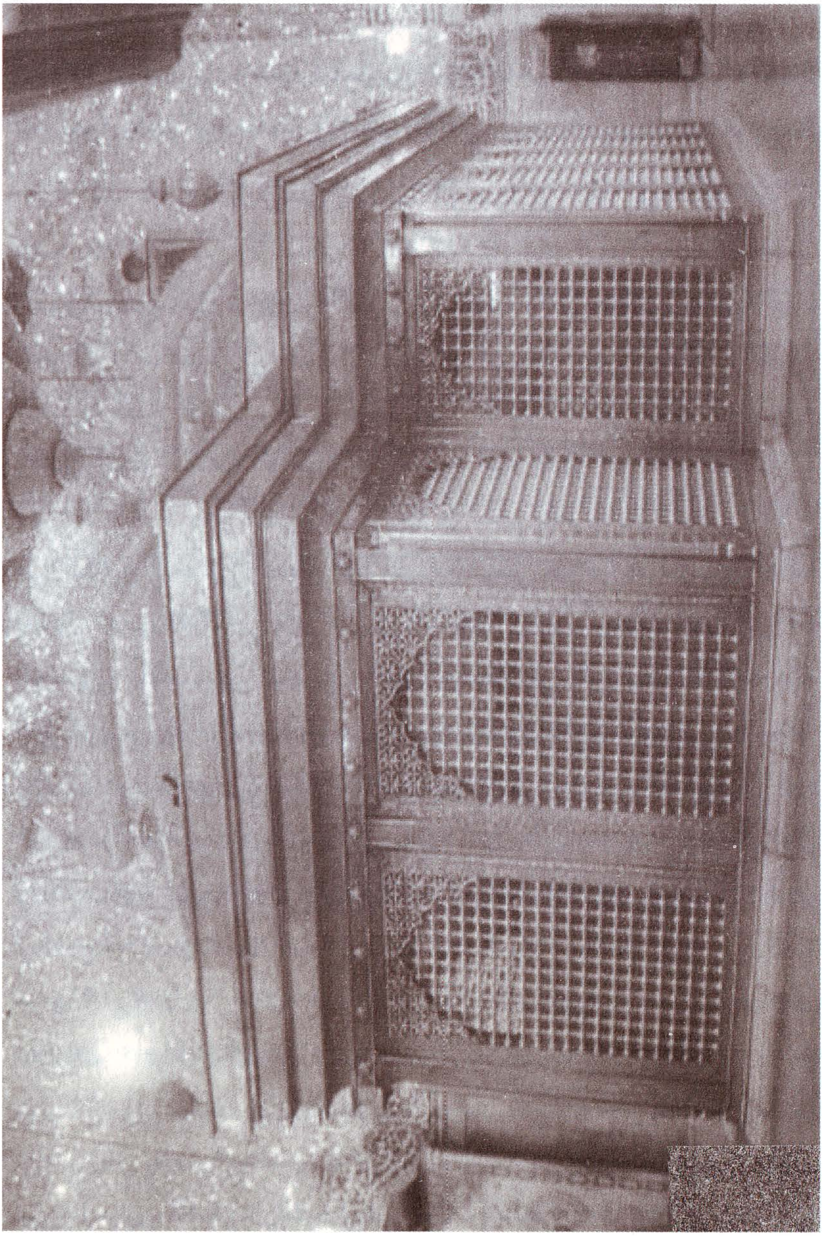
وصل الخبر إلى العراق. فأمر الوالي عبيد الله بن زياد بإرسال دوريات لمراقبة جميع الطرق الصحراوية وأعدم قادة التمرد في الكوفة ومن ضمنهم مسلم بن عقيل ابن عمِّ الحسين. لم يسمع الحسين بذلك إلّا بعد أن كان قد اقترب من الفرات. ومع ذلك تابع مسيره. حالت دورية عسكرية تابعة للوالي دون وصوله إلى الكوفة وأجبرته ومرافقيه على التوجه نحو الشمال. ومن بين آلاف الشيعة الكوفيين المزعومين لم يأت رجل واحد لنصرة حفيد النبي. وفي الثاني من محرم 61هـ (الثاني من أكتوبر/ تشرين الثاني 680) خيّم الحسين ورفاقه في موقع كربلاء، على بعد 70 كيلومتراً شمال الكوفة و20 كيلومتراً غربي الفرات. وفي اليوم التالي وصلت إلى المكان قوات الوالي التي

كانت تتألف، كما يقال، من 4000 رجل بقيادة عمر بن سعد وقامت بقطع الطريق عليهم ومنعهم من الوصول إلى الماء مما جعلهم يعانون العطش ثلاثة أيام متواصلة. أُجريت مفاوضات أخرى بين الطرفين لكنها فشلت جميعها لأن الحسين رفض مبايعة الخليفة يزيد. في التاسع من محرم تقدمت القوات الكوفية إلى مقربة من معسكر الحسين وفي صباح اليوم التالي (العاشر من محرم = العاشر من أكتوبر/ تشرين الأول سنة 680م) بدأت المعارك الفردية والمناوشات التي انتهت بعد الظهر باقتحام المخيم. فقتل في المعركة الحسين وجميع مرافقيه الذكور ـ حسب الروايات المتناقلة 32 خيالاً و40 رجلاً من المشاة ـ ومن ضمنهم العباس أخو الحسين غير الشقيق، وابن الحسين علي الأكبر، وابن أخيه القاسم بن الحسن.

دفن القتلى في نفس المكان الذي حدثت فيه المجزرة. وفي هذا الموقع تنتصب اليوم أضرحة كربلاء المقدسة. أما رأس الحسين فقد أُخذ إلى الكوفة حيث قام الوالي عبيد الله بن زياد بضربه بعصا وكسر له عدة أسنان. وأما النساء الأسيرات، ومن بينهن زينب أُخت الحسين، وابن الحسين الوحيد الذي بقي على قيد الحياة وهو علي الأصغر (الإمام الرابع) فقد نقلوا في بادىء الأمر أيضاً إلى الكوفة وفي وقت لاحق إلى دمشق حيث عاملهم الخليفة (حسب المصادر التاريخية) أفضل المعاملة ثم سمح لهم بالسفر إلى المدينة. ويقال بأن رأس الحسين دفن في دمشق؛ ولم يزل ضريحه يزار حتى اليوم في حجرة صغيرة في باحة الجامع الأموي في دمشق. وهناك رواية أُخرى تقول بأن رأس الحسين دُفن في عسقلان في فلسطين ثم نقل من هناك

من أجل إنقاذه من اعتداء الصليبيين إلى القاهرة. ويقع ضريحه «مشهد الحسين» هناك إلى جانب الجامع الأزهر.

هذه الرواية التاريخية القديمة الواقعية إلى حدٍّ بعيد نسج حولها فيما بعد كثير من الأساطير. فنشأت كل هذه الحكايات العاطفية المؤثرة التي تثير الرعب والحزن والشفقة والتي لم تزل حتى اليوم الموضوع المفضل في المراثي والمآتم الشيعية وفي الرسوم والصور التعبيرية للفن الشعبي. إلى جانب علي الأكبر، الابن البكر للحسين، والذي يلفظ أنفاسه الأخيرة في حضن أبيه يظهر ابن آخر للحسين، علي الأصغر، وهو طفل رضيع يخترق سهم بلعومه. والعباس، الأخ غير الشقيق للحسين، تقطع أولاً ذراعه اليمنى ثم ذراعه اليسرى عندما يحاول جلب الماء من الفرات لإرواء ظمأ رفاقه. وهناك أيضاً ابن أخ الحسين، القاسم بن الحسن، الذي يوصف في الروايات القديمة بأنه كان فتًى في غاية الجمال، يصبح عند الشيعة بطلاً لمأساة رومانسية: كان خاطباً لإحدى بنات عمِّه الحسين فقتل العريس الشاب في يوم عرسه بالذات. وهكذا تستقبل نعشه الخيمة المنصوبة لإقامة حفل زفافه. كما أن مشاهد وقوف النساء الناجيات من الموت والابن الوحيد للحسين الذي بقي على قيد الحياة أمام الخليفة يزيد والإذلال الذي تعرضوا له على يد الطاغية يضاف إليها كثير من الرتوش وتعرض بصورة درامية.



قبر الإمام الحسين في كربلاء



مأساة كربلاء

بالنسبة للمؤرخ تندرج أحداث سنة 680م/ 61هـ في إطار الصراعات السياسية على السلطة داخل الجيل الثاني (الحسين بن علي ضد يزيد ابن معاوية). وما حدث في كربلاء لا يعني من هذا المنظور سوى سقوط رجل مطالب بالحكم كان سيّئ التجهيز وضعيف التصميم. أما المؤرخ الديني فسيقول إن سقوط الحسين هو الذي أدى إلى بروز الشيعة كظاهرة دينية. فقبل سنة 680 لم يكن هناك أي شيعي على الإطلاق. إلا أن موت الإمام الثالث ورفاقه بهذه الطريقة كان بمثابة الانفجار العظيم الذي انبثق عنه العالم الشيعي المتوسع بسرعة كبيرة. إن كربلاء تشكل قطب الرحى في العقيدة الشيعية وهي ذروة خطة إلهية للنجاة سينال نصيباً منها كل من يقف إلى جانب الإمام الشهيد.

أُصول التدين الشيعي: مسيرات «التوابون» (684م/64هـ)

لم تبدأ المسيرات الدينية لشيعة علي إلا بعد كارثة كربلاء، أي بعد فشلها السياسي. صحيح أن محاولات انقلابية كثيرة قد حدثت بعد ذلك مراراً وتكراراً قام بها أحفاد الحسن وأحفاد الحسين على حدٍّ سواء لكنها باءت جميعها بالفشل. وتحت تأثير هذا الفشل انسحب جزء كبير من الشيعة ـ بمن فيهم الأئمة ـ من المسرح السياسي؛ فأصبحت الشيعة فرقة تميل إلى المعارضة.

كان مركز الشيعة السياسي كما الديني والنقطة التي انطلقوا منها المدينة العراقية الكوفة التي أسسها العرب على نهر الفرات. أي أن الشيعة نشأت في العراق وفي وسط عربي بحت. ومن الضروري تأكيد ذلك لأن المعلّقين يزعمون دوماً أن الشيعة ظاهرة إيرانية وهي

غريبة كليّاً عن طبيعة العرب. من الممكن أن يكون قد دخل إلى العقيدة الشيعية في قرون متأخرة، وخاصة بعد تشيع إيران في القرن السادس عشر، كثير من التقاليد الإيرانية القديمة. لكن الشيعة تبقى من ناحية أُصولها ونشأتها عربية تماماً كالإسلام نفسه.

يمكن تحديد زمن نشوء الشيعة في الأعوام الواقعة بين مأساة كربلاء (680م/ 61 هـ) ومسيرة الموت التي قام بها «التوابون» الكوفيون في سنة 684م/ 64 ـ 65 هـ. لقد سبق ورأينا أن أنصار علي الكوفيين قد شجعوا ابنه الحسين على السعي إلى الاستيلاء على السلطة ودعوه إلى العراق لكنهم تخلوا عنه بصورة مخجلة عندما احتاجهم. فلم يتحرك رجل واحد عندما وقع الإمام في كربلاء في مأزق. إلّا أن الكارثة التي حلت بحفيد النبي ولّدت لدى أنصاره الكوفيين حالة خطيرة من الندم وتأنيب الضمير. وانطلاقاً من هذا الشعور تشكلت مجموعة من الناس دخلت التاريخ تحت اسم «التوابون» وهي المجموعة التي يمكننا اعتبارها النواة الأولى للشيعة. قاد هذه المجموعة رجل اسمه سليمان ابن صرد[1] وهو عربي وجيه و«شيعي» قديم كان قد حارب في موقعة صفين إلى جانب علي. كان ـ مثل غالبية رفاقه ـ في الستين من عمره عندما قُتل الإمام الحسين في كربلاء. كانت الشخصيات القيادية في «الحزب» تجتمع بانتظام في بيت سليمان في الكوفة وكانوا يوجهون لأنفسهم سلسلة لا نهاية لها من الاتهامات. كانوا يعبرون عن ندمهم على فشلهم ويحاولون تنقية

---

(1) هو سليمان بن صرد الخزاعي ولد قبل عام 28 هجري في اليمن صحب سليمان النبي بعد أن أسلم على يدي النبي وكان اسمه في الجاهلية يساراً فسماه الرسول بعد إسلامه سليمان. [الناشر].

ضمائرهم بالتوبة وطلب المغفرة. حسب الرواية الشيعية تطور الشعور بالتقصير ولوم الذات لدى «أنصار الحزب» الذين كانوا يجتمعون في بيت سليمان بن صرد إلى الاعتراف بالعار وإلى الرغبة في التكفير عن هذا العار بالموت. واستندوا في ذلك إلى الآية 54 من سورة البقرة التي تتحدث عن الإسرائيليين الذين عبدوا العجل المصنوع من الذهب. فخاطبهم الله بلسان النبي موسى قائلاً: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

إذ إن سليمان بن صرد ألقى خطبة استذكر فيها قصة الإسرائيليين الذين تابوا ووضعوا رقابهم تحت السيف مستعدين للموت تكفيراً عن ذنبهم ثم نادى رفاقه قائلاً: «كيف هو الحال معكم أنتم؟ ماذا ستفعلون لو طلب منكم الاقتداء بهم؟». تلا ذلك نقاش حول إمكانية الانتحار جماعياً للتكفير عن الذنب، لكن هذه الفكرة رفضت. وينقل عن أحد المتكلمين قوله: «والله لو علمت أن انتحاري سيخلصني من خطيئتي وأن ربي سيغفر لي ذنبي لقتلت نفسي على الفور. ولكن ما كان مسموحاً للإسرائيليين آنذاك ممنوعاً، للأسف، على المسلمين. فالقرآن يحرم الانتحار كما يحرم قتل المسلم (الآية 29 من سورة النساء). ولكن يبقى هناك سبيل آخر ألا وهو: الموت في ساحة المعركة تكفيراً عن الذنب». وهكذا يستعاض عن الانتحار الجماعي بالتضحية الجماعية بالذات حيث يترك للعدو مهمة التنفيذ.

كثيراً ما يشار ـ من الجانب الشيعي أيضاً ـ إلى التشابه في بعض المواقع بين العقيدة الشيعية والتصورات المسيحية. لكن الفروق

واضحة لا يمكن إغفالها. فهناك في أحسن الأحوال تشابهات وليس تطابقات. إذ إن «الخطيئة» الشيعية ليست خطيئة موروثة، ليست عيباً وجودياً التصق بالبشرية منذ البدء وجعلها بحاجة إلى الخلاص وإنما فشل تاريخي للفرقة بكاملها في حالة محددة. إلا أن العقيدة الشيعية ترى أن هذا العار الذي التصق آنذاك بالأجداد يتعين على الأجيال اللاحقة أن تغسله بدمائها: فالشيعة اللاحقة ملزمة بالتكفير عن ذنب الشيعة السابقة ـ وطبعاً عن ذنوبها أيضاً. وما زال الشيعة يجيبون حتى اليوم على السؤال عن سبب ضرب أنفسهم في ذكرى مأساة كربلاء وجرح أجسامهم بالسيوف بالقول: «لكي نؤكد أننا لو كنا في كربلاء آنذاك لوقفنا إلى جانب الإمام وفديناه بدمائنا». فشعائر عاشوراء، التي سنتحدث عنها لاحقاً بصورة أكثر تفصيلاً، تعود في الأصل إلى ذلك الموقف. وهي ليست شعائر حزن، كما يزعم البعض، وإنما شعائر تكفير: منهم يحاولون التكفير عن ذلك الذنب العظيم الذي اقترف آنذاك على أمل أن يغفر الرب الرحيم للشيعة البقية الباقية من ذنوبهم.

أرسل سليمان بن صرد رسالة إلى «أتباع الحزب» في العراق ودعاهم إلى القيام بمسيرة مشتركة إلى الموت. وفي الوقت المحدد، في نوفمبر/ تشرين الثاني 682م/ 63 هـ، تجمع هناك «التوابون». ثم اتجهوا نحو الشمال وساروا بمحاذاة الفرات نحو الأعلى باتجاه سورية. توقفوا في موقع كربلاء لكي يقضوا ليلة كاملة ـ ووجوههم ملونة بالسواد ـ في النواح والشكوى اعترافاً منهم بذنبهم تجاه الإمام. وبعد ذلك تابعوا مسيرهم. في بداية يناير/ كانون الثاني 685م/ 66 هـ اعترضتهم في شمال منطقة ما بين النهرين القوات السورية وفتكت

بهم ـ حسبما كانوا يتوقعون ويأملون. لم ينج من الموت سوى عدد قليل منهم. لكن هؤلاء الذين نجوا شعروا بالخجل أمام الجثث المتناثرة في ساحة المعركة لأنهم بقوا على قيد الحياة. ويروى عن أحدهم قوله: «أنتم سيرحمكم الله لأنكم قلتم الحقيقة وصبرتم. أما نحن فقد كذبنا ونجونا من الموت»، وهذا يعني أنكم أنتم وفيتم بنذركم الموت، أما نحن فقد بقينا أحياء بطريقة معيبة. (بعد وفاة آية الله الخميني شاهدنا في التلفزيون كيف كان الجنود الإيرانيون العائدون من الأسر في العراق يركعون أمام قبره وهم يبكون طالبين المغفرة لأنهم لم يموتوا في ساحات القتال ـ وهذا مشهد يبدو غريباً جداً في أعين الغربيين لكنه بالنسبة للشيعة سلوك مألوف منذ مئات السنين ـ الفارق الوحيد هو أن التوسل موجه هنا ليس إلى الإمام الحسين وإنما إلى قائد الثورة الخميني).

بذلك يمكننا القول إن حركة التوابين الكوفية تشكل المنشأ الحقيقي للإسلام الشيعي. فقد صاغت هذه الحركة جميع العناصر الجوهرية ومفاهيم التدين الشيعي وأهمها: «الفشل»، و«الندم»، و«التوبة»، و«العقاب».

ويشكل الاستعداد للتضحية، الذي لم يزل قائماً حتى اليوم دون أي تغيير، أبرز خصائص هذه العقيدة.

إلا أن الجماعة الدينية أو الطائفة التي تختار الموت الجماعي هدفاً لها لن تعيش زمناً طويلاً؛ ولدينا أمثلة على ذلك مما جرى في أمريكا في أيامنا. لكن الشيعة موجودون منذ أكثر من 1300 عام. فقد حوّلوا التضحية بالذات، التي نفذها «التوابون» فعلاً سنة 684-

685م/ 65 - 66 هـ، إلى طقوس يؤدونها في يوم عاشوراء. لكن الطقس يتطلب بطبيعته القابلية للتكرار والإعادة في فترات زمنية محددة؛ وهذا يتطلب بدوره أن يبقى المرء حياً بعد التضحية بالذات. ولذلك فإن الطقس هو في أغلب الأحيان تصرف تعويضي، بديل عن تصرف آخر: فالفعل الطقسي ـ إسالة الدم بواسطة الجلد بالسياط وجرح الجبهة بالسيف ـ يعوض عما هو مقصود فعلاً ـ عن الموت تكفيراً عن الذنب ـ لكنه يضمن للمنفذ النتيجة المنشودة من الموت التكفيري ألا وهي التحرر من الذنب التاريخي. غير أن الموت التكفيري المستعاض عنه بالطقس يمكن أن يصبح مطلوباً فعلاً في أي وقت. عندئذ يتعين على الشيعي أن يبرهن عن مدى جدية استعداده للتضحية بنفسه.

التخلي عن السياسة:
الإمام السادس جعفر الصادق (702 ـ 765 م/ 83 ـ 148 هـ)

في نفس العام (685م/ 66 هـ) الذي قُضي فيه على التوابين ثار الشيعة في الكوفة ضد والي الخليفة الأموي وأخضعوا المدينة لسيطرتهم ونفذوا بحق المسؤولين عن مجزرة كربلاء عقوبات رهيبة. لكن الحكم الشيعي للمدينة ولأجزاء من جنوب العراق لم يدم سوى سنة ونصف السنة. ثم انهار بعد ذلك.

كان علي بن الحسين الذي كان القريب الذَّكر الوحيد الذي نجا من مجزرة كربلاء لأنه كان نائماً في الخيمة بسبب مرضه، قد أخذ في بادىء الأمر مع النساء إلى بلاطِ الخليفة في دمشق ثم أُرسل من هناك إلى المدينة. في الأدب الشيعي يطلق عليه لقب زين العابدين. وهو

لم يمارس أي نشاط سياسي يستحق الذِّكر. ولا نعرف أي شيء عن حياته وعن شخصه. فحتى سنة وفاته غير معروفة بالضبط؛ توفي في المدينة في حوالي سنة 673م/ 90 هـ. كما أن الإمام الخامس محمداً الملقب بالباقر بقي في الظل ولا نعرف الكثير عن شخصيته. كل ما نعرفه أنه توفي في المدينة سنة 733م/ 114 هـ ولم يبد أي طموحات سياسية. إلا أن أخاه غير الشقيق زيداً تجرأ على قيادة تمرد آخر في الكوفة في سنة 739-740م/ 122 هـ لكنه فقد حياته في القتال ضد قوات الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك.

وينتسب إلى زيد اتجاه خاص من الشيعة لم يزل موجوداً حتى اليوم ـ ولكن فقط في شمال اليمن. يعتقد الزيديون، الذين لا يعرفون تسلسلاً ثابتاً للأئمة، أنه يحق، من الناحية المبدئية، لكل من ينحدر من نسل النبي محمد أن يكون خليفة له إذا ما انتزع الخلافة بحدِّ السيف.

مع مجيء الإمام السادس جعفر الملقب بالصادق اكتسبت الشيعة مرة أُخرى ملامح واضحة وأهمية متزايدة. ولد الإمام جعفر، على الأرجح، سنة 702م/ 83 هـ في المدينة وأمضى حياته هناك كمالك أرض غنيّ دون أن يتدخل في الشؤون السياسية وتوفي هناك سنة 765م. وفي حياته سقطت الخلافة الأموية على يد الثورة العباسية سنة 749-750/ 133 هـ وانتهى بذلك حكم الأسرة الأموية في دمشق وحلت محلها الأسرة العباسية المنحدرة من العباس عم النبي محمد ـ أي أن أفرادها ينتمون إلى عشيرة النبي، بني هاشم، وهم بالتالي من أقرب أقرباء الأئمة. لم يكتف شيعة العراق بالترحيب بالانقلاب بل شاركوا أيضاً في التحضير له آملين في أنهم سيصلون

أخيراً إلى الحكم. ويقال إنهم وجهوا، في ذروة الاضطرابات الثورية، إلى الإمام جعفر الصادق رسالة عرضوا عليه فيها تولي الخلافة لكن الإمام رفض العرض. وليس معروفاً، إن كان الخبر صحيحاً، وما هي الأسباب التي دعته إلى ذلك. وعلى أي حال فقد خرج الشيعة من العملية صفر اليدين وبعد وقت قصير أبعدتهم الأسرة الحاكمة الجديدة، الأسرة العباسية، عن مواقع الحكم. وهكذا بقوا في المعارضة. وفي الوقت نفسه بقي جعفر الصادق على اتصال وثيق مع شيعة العراق لكنه امتنع كما في السابق عن القيام بأي نشاط سياسي ولذلك لم يتعرض له الحكام الجدد بأي أذى. لا بل إنه سافر بنفسه إلى العراق، على الأرجح، لكي يبايع الخليفة العباسي المنصور (754 ـ 775م/ 136 ـ 158 هـ). ويقال إنه بهذه المناسبة عثر قرب النجف على قبر الإمام الأول علي ابن أبي طالب الذي كان ضائعاً(*).

في سنة 762م/ 145 هـ، قبل ثلاث سنوات من وفاة الإمام جعفر، بنى الخليفة المنصور قرب قرية بغداد مقراً جديداً له ما لبث أن تطور بسرعة كبيرة إلى حاضرة كبيرة للعراق. إذ يقال إن قطرها بلغ في بداية القرن التاسع، في عهد هارون الرشيد، نحو 10 كيلو مترات وكانت بذلك أكبر مدينة في العالم آنذاك. أصبحت بغداد، إلى جانب الكوفة، المركز الكبير الثاني للشيعة في العراق إذ استوطن في الأحياء الخارجية من المدينة وخاصة في حي الكرخ الواقع في الجنوب كثير من الشيعة لكنهم لم يكونوا يشكلون سوى أقلية السكان.

يعدّ الإمام السادس جعفر الصادق مؤسس المذهب الفقهي

(*) حدث هذا في زمن هارون الرشيد. [الناشر].

الشيعي. فقد قام في المدينة بجمع الأحاديث النبوية والتعليق عليها. ولذلك يعتبره الشيعة أهم شخصية في جميع المسائل الدينية والفقهية إذ إن المراجع اللاحقة للفقه الشيعي تحتوي على آلاف الأقوال والفتاوى الصادرة عن الإمام جعفر. ولذلك يسمي الشيعة مذهبهم الفقهي باسمه «المذهب الجعفري».

ترحيل الإمام السابع (796م/ 127 ـ 183 هـ)

أدت وفاة جعفر الصادق في سنة 765م/ 148هـ إلى وقوع الجماعة الشيعية في العراق في أزمة خطيرة لأن خلافة الإمام لم تكن قد سُويت بطريقة ترضي الجميع. فقد كان ابن جعفر، إسماعيل، الذي كان من المقرر، كما يبدو، أن يخلف أباه في الإمامة، قد توفي قبل أبيه بعشر سنوات، وابن جعفر البكر، عبد الله، لم يعش بعد وفاة أبيه سوى عدة أشهر ولم يكن له أولاد. وهكذا حدث أول انشقاق بين الشيعة. فقد نشأ العديد من الفرق والمجموعات الصغيرة التي اتخذت كل منها إماماً مختلفاً عن الأخرى. ولكن لم يبق من هذه الفرق حتى اليوم إلا الفرقة الإسماعيلية التي تمسكت بإمامة اسماعيل المتوفى مبكراً وبإمامة أبنائه من بعده. ويعدّ الزعيم الحالي للإسماعيلية، الآغاخان، الإمام التاسع والأربعين من هذا الخط. وهناك فِرَق أخرى تعتقد بأن الإمام جعفر لم يمت إطلاقاً وإنما يعيش متخفياً ليعود في يوم من الأيام عودة النصر والظفر. هنا نسمع لأول مرة بـ«الغيبة»، أي تخفي الإمام ليعود بعد حين. لكن هذا التصور لم ينتصر في بادىء الأمر لأن الإمام السادس كان له أبناء آخرون؛ وهكذا تم في نهاية المطاف الاعتراف بابن جعفر،

موسى، إماماً سابعاً. إلا أن الشيعة ظلت في مرحلة تشكلها تتأرجح مراراً بين نموذج الإمام الحاضر بجسده ونموذج الإمام الغائب، أو المتخفي عن الأنظار، إلى أن فرض نفسه أخيراً نموذج الإمام الحاضر.

عاش الإمام السابع، الملقب بالكاظم، في بادىء الأمر مثل أسلافه في المدينة. ولكن لما جاء الخليفة هارون الرشيد في سنة 795-796م/ 180 هـ إلى الحج إلى مكة والمدينة أخذ معه الإمام عند عودته إلى العراق ووضعه في أول الأمر في البصرة وفيما بعد في بغداد تحت الإقامة الجبرية في منزله وهذا دليل على أن أنصار الإمام كانوا في هذا الوقت كثيرين جداً إلى درجة أن الخليفة خشيه وقرر وضعه تحت السيطرة. واعتباراً من الآن صار جميع الأئمة في العراق يوضعون تحت وصاية الخلفاء الحاكمين في بغداد ولكن دون مساسهم بأي أذى باعتبارهم أحفاد النبي. وتصف الروايات والكتابات الشيعية هذا الأسر البابلي للأئمة بأنه سلسلة واحدة من الألم والاستشهاد. حسب المعتقدات الشيعية قام الخلفاء بالقضاء على جميع الأئمة دون استثناء بالقوة ـ غالباً بالسم (لكن هذا غير صحيح تاريخياً). وكانت وفاة الإمام السابع موسى في سنة 799م/ 183 هـ قد فتحت المجال لأول مرة لمثل هذه الشائعات. دفن موسى الكاظم في مقبرة الأرستقراطية العربية في شمال بغداد؛ وينتصب فوق قبره اليوم في حي الكاظمية المسمى باسم المقام الشيعي المقدس ذي القبتين الذهبيتين لأن حفيده، الإمام التاسع، يرقد إلى جانبه. في السابق كان هذا الحي يسمى «الكاظمَين» لوجود قبري الإمامين فيه.

الإمام الثامن علي الرضا كولي للعهد (816م / 201 هـ)

عاش الإمام الثامن علي، الملقب بالرضا، بعد ترحيل أبيه في بادىء الأمر في المدينة لكن الخليفة المأمون، ابن هارون الرشيد، أمر في سنة 816م بجلبه أيضاً إلى الشرق. كان الخليفة يقيم آنذاك في أقصى الطرف الخارجي للدولة في مرو (ماري الحالية في تركمانستان) ولذلك تعين على الإمام السفر إلى هناك. ولكن كان ينتظره هناك تحول مفاجىء في التعامل إذ إن الخليفة زوّج الإمام البالغ من العمر نحو خمسين عاماً بإحدى بناته. لا بل إنه لم يكتف بجعله صهراً له بل أعلنه أيضاً ولياً للعهد. حول هذه الخطوة غير العادية التي اتخذها الخليفة المأمون طرح كثير من التساؤلات ودار كثير من النقاش. لا شك في أنها تجد تفسيرها في الظروف السياسية السائدة آنذاك التي لن نهتم بتفاصيلها هنا، لاسيما أن الإجراء بكامله لم يشكل سوى مقطع قصير جداً في مجرى التاريخ. فعندما توجه الخليفة نحو الغرب لكي يخضع الأمراء الذين ثاروا في بغداد بسبب حرمانهم من ولاية العهد، توفي الإمام علي الرضا في سنة 818م/ 203 هـ في مدينة طوس في شرق إيران ودفن بالقرب منها. وأصبح ضريحه «قبر الشهيد» أو «المشهد» نواة مدينة مشهد الحالية. وهو القبر الوحيد لإمام شيعي في الأرض الإيرانية. ولم يزل الشيعة حتى اليوم يلعنون هناك بأعلى أصواتهم الخليفة المأمون وأباه هارون الرشيد لما ألحقاه من أذى وألم بالإمامين السابع والثامن.

الضريح المقدس في قم

يوجد في إيران، إلى جانب مشهد، مقام آخر لعب في حياة

الشيعة الإيرانيين في جميع الأوقات دوراً بارزاً كمزار يقصده الحجاج من كل مكان وأصبح في القرن العشرين مركزاً فكرياً وروحياً، ولبعض الوقت سياسياً أيضاً ألا وهو: قم. يعتقد بأن المدينة الإيرانية القديمة ـ الواقعة على بُعد 140 كيلومتراً جنوب غرب طهران الحالية على نهر مالح عند طرف الصحراء ـ تعرضت للدمار خلال الاحتلال الإسلامي العربي ولكن أعيد بناؤها في سنة 712م على يد مستوطنين عرب اضطروا إلى مغادرة الكوفة بسبب عقيدتهم الشيعية. أي إن قم الإسلامية كانت منذ البداية مدينة شيعية، فرعاً من الكوفة، وحافظت على طابعها العربي حتى القرن العاشر الميلادي. ولما سافرت في سنة 817م فاطمة المعصومة، أُخت الإمام الثامن، إلى شرق إيران لكي تزور أخاها الذي عيَّنه المأمون ولياً للعهد أُصيبت بالمرض في مدينة سافه الواقعة غرب قم. ولكي تقضي أيامها الأخيرة بين أبناء عقيدتها الشيعيين طلبت نقلها إلى قم حيث توفيت ودفنت. واليوم تطغى القبة الذهبية لمقامها على صورة مدينة قم التي لم تصبح محجاً للشيعة وحسب بل أنجبت أيضاً في القرنين التاسع والعاشر كثيراً من العلماء والمؤلفين الشيعة.

الأئمة في سامراء (836 ـ 873م / 229 ـ 260 هـ)

تعين على الإمام التاسع محمد الجواد، الملقب أيضاً بالتقي، الزواج من إحدى بنات الخليفة المأمون وهو لم يزل طفلاً وذلك لتوثيق صلته مع الأسرة الحاكمة. لا بل سُمح له بعد بعض الوقت بالعودة مع أسرته من بغداد إلى المدينة. إلا أن الخليفة المعتصم، أخا المؤمون وخليفته، أمر في سنة 835م/ 220 هـ بإعادته إلى بغداد

حيث توفي في العام نفسه وهو في الرابعة والعشرين من عمره. دُفن في المقبرة الموجودة في شمال العاصمة إلى جانب جدِّه موسى الكاظم حيث ينتصب اليوم ضريحان إلى جانب بعضهما مع قبتين ذهبيتين يسميان «الكاظمَيْن». بعد عام واحد انتقل الخليفة المعتصم مع حراسه الأتراك من بغداد إلى مقرٍّ جديد أسسه على نهر دجلة على بعد 100 كيلو متر شمال غرب بغداد اسمه: سامراء. ظلت سامراء أكثر من نصف قرن (836م ـ 892م) عاصمة للخلافة وتعين على الأئمة أن يتبعوا الخلفاء إلى هناك. في سنة 848م/ 233 هـ أمر الخليفة المتوكل بجلب الإمام العاشر علي الهادي، الذي كان عمره آنذاك نحو عشرين سنة، إلى سامراء حيث توفي سنة 868م/ 254 هـ ودُفن في منزله هناك. من المؤكد أن ترحيل الإمام مجدداً كانت له أسباب سياسية. فقد كان الشيعة قد أصبحوا في هذه الأثناء أقوياء جداً إلى درجة أنهم صاروا يشكلون خطراً.

ومما يدل على خوف الخليفة الشديد منهم أنه أمر في سنة 850م بهدم المقام[1] المبني فوق قبر الحسين في كربلاء.

أطلق على الإمام الحادي عشر الحسن لقب العسكري لأنه أجبر على العيش في معسكر الخليفة، أي في سامراء. وعندما توفي في 25 ديسمبر/ كانون الأول 873م أو في أول يناير/ كانون الثاني 874م/ 260 هـ عن عمر ناهز الثامنة والعشرين دُفن إلى جانب والده في الأرض التابعة لمنزله. واليوم ينتصب في هذا المكان الضريح

---

(1) تمَّ هذا الهدم في زمن الخليفة المتوكل عام 236 هـ [الناشر].

المزيّن بقبة ذهبية والمسمى ضريح «العسكريَّيْن»، أي الإمامين العاشر والحادي عشر[1].

غيبة الإمام الثاني عشر (873م/ 260 هـ)

حسب الروايات السائدة عموماً، وخاصة السُّنية، لم يكن للإمام الحادي عشر عند وفاته المبكرة خلف ذكر. . كما أن أقدم المصادر الشيعية تذكر أيضاً أن انقراض الخط الرئيسي للأئمة أوقع الأمة الشيعية في أزمة خطيرة. فقد حدث خلاف شديد حول من سيقف الآن على رأس الأمة وأدى إلى انشقاقها إلى أكثر من عشر فرق وجماعات مختلفة. وتصف المراجع الشيعية هذه المرحلة من تاريخها بأنها مرحلة «الحيرة». إحدى هذه الفرق كانت تدعي منذ البداية أنه ليس صحيحاً أن الإمام الحادي عشر توفي بلا عقب، بل كان له ابن صغير اسمه محمد ولد سنة 869م/ 255 هـ لكن أباه خبأه لكي يحميه من بطش الخليفة. وتؤكد الرواية الشيعية أن أفراد العائلة فقط وعدداً قليلاً من الثقات المقربين شاهدوا هذا الإمام قبل أن يتخفى عن الأنظار. وحتى عندما توفي الإمام الحادي عشر لم يعد خليفته إلى الظهور. بل هو يقيم منذئذ في مكان ما على الأرض متخفياً، لكنه سيظهر في يوم من الأيام ويقف على رأس أمته ويستعيد الحقوق المشروعة لآل بيته.

مضى حوالي قرنين من الزمن إلى أن فرضت نفسها لدى الطائفة الشيعية فكرة الإيمان بوجود الإمام الغائب وإلى أن اختفت الاتجاهات والفِرق الأخرى التي نشأت في مرحلة «الحيرة». وهكذا نتج عن الشيعة «الإمامية» الشيعة «الاثنا عشرية»، كما يسمون هم

---

(1) تم تدمير هذا المقام عام 2006 من قبل الإرهابيين. [الناشر].

أنفسهم ليميزوا نفسهم عن الجماعات الشيعية الأخرى. وبذلك أصبح الإيمان بوجود الإمام الثاني عشر الغائب وبعودته في المستقبل أهم علامة مميزة.

نود هنا أن نشير إلى أن الشيعة يتصورون أن الإمام الثاني عشر غائب لكنه يعيش على الأرض. وهم يعتقدون، إضافة إلى ذلك، أنه ظل أربعة أجيال يتصل بأمته المتيتِّمة بواسطة «سفير» ويبلغها تعليماته بواسطة الرسائل. مثل هذه الرسائل كانت تتداول فعلاً داخل الطائفة ولم تزل تنقل حتى اليوم. يسمي الشيعة هذه المرحلة (874م ـ 941م) «الغيبة الصغرى». ولكن بعد ذلك قرر الإمام الغائب إيقاف هذه الاتصالات أيضاً والانزواء كليّاً عن البشرية. في رسالته الأخيرة أعلن نيته هذه ووصم بالكذب كل من يدعي في المستقبل أنه اتصل به. وبذلك بدأت في سنة 941م/ 329 هـ مرحلة «الغيبة الكبرىٰ» التي لم تزل مستمرة حتى يومنا هذا. نتيجة لذلك بقيت الطوائف الشيعية كليّاً دون قيادة روحية، أمة دون إمام حاضر وبالتالي في وضع غير مستقر. إذ من سيكون قادراً ومخولاً بقيادة الأمة بالنيابة خلال فترة غياب الإمام. ومن الممكن وصف تاريخ الشيعة بأنه صراع متواصل حول الإجابة على هذا السؤال. وكانت الثورة في إيران سنة 1979م آخر محاولة للإجابة على هذا السؤال.

الأربعة عشر المعصومون

يطلق الشيعة على النبي محمد وابنته فاطمة والأئمة الاثني عشر اسم «الأربعة عشر المعصومون». وهذا يعني أن الأربعة عشر المذكورين معصومون عن الخطأ والخطيئة. ولذلك تتمتع الأقوال المنقولة عنهم والنصوص المكتوبة بصلاحية غير محدودة. فكل شيعي مؤمن يمكنه الاعتماد عليها بصورة مطلقة. وبينما لا يمنح السُّنة مثل هذه الصلاحية إلا لأقوال وأحاديث النبي محمد ويعتبرون هذه الأقوال فقط «السُّنة» الملزمة لجميع المسلمين، لم يجمع الشيعة أحاديث النبي نفسه المثبتة بشهود موثوقين، فحسب، بل جمعوا أيضاً أقوال فاطمة والأئمة الاثني عشر. وكما هو حال الأحاديث النبوية عند السُّنة فإن أحاديث الأربعة عشر المعصومين تشكل أساس الفقه الشيعي.

إنه لأمر مهم أن الشيعة لم يمنحوا صفة العصمة إلا للأربعة عشر وحدهم. وفيما عداهم لا يحق لأي إنسان آخر ادعاءها. وينطبق هذا أيضاً على أعلى مراتب آيات الله: فهم أيضاً يمكن أن يخطئوا. ولذلك فإن جميع قراراتهم وأحكامهم هي ذات طبيعة مؤقتة وبالتالي قابلة دوماً للتعديل. إن حقيقة كون العصمة تقتصر على الشخصيات

الأربعة عشر، الذين ثلاثة عشر منهم متوفون والرابع عشر غائب، أثبتت أنها مفيدة جداً وعملية جداً بالنسبة لتطور الشيعة اللاحق. إذ إن الشخصيات الحاضرة ـ وجميعهم بشر معرضون للوقوع في الخطأ ـ حصلوا بذلك على يد طليقة في التصرف ـ لكنه تصرف مؤقت وبالتالي قابل للتعديل.

يتمتع الأئمة بصفة مشتركة أخرى: فهم يعتبرون جميعاً شهداء. ليس فقط على الذي اغتيل في الكوفة والحسين الذي ذُبح في كربلاء، وليس فقط الأئمة الذين نُقلوا إلى العراق وماتوا كما يبدو في المعتقل، وإنما أيضاً الذين ماتوا في المدينة، حسبما يبدو، ميتة طبيعية، ماتوا حسب المعتقدات الشيعية قتلاً على يد الحكام. ولذلك يطلق على عائلة النبي بكاملها اسم «بيت الأحزان». ويحتفل الشيعة بيوم استشهاد كل إمام معبرين عن حزنهم بهذه الذكرى الأليمة. فقط الإمام الثاني عشر يحتفل بيوم ولادته (الخامس عشر من شعبان).

ولكن وبما أن الأئمة طاهرون من الإثم ومعصومون عن الخطأ فإن استشهادهم غير مستحق: لقد تألموا بلا ذنب. فضلاً عن ذلك يعتقد الشيعة أن جميع الأئمة كانوا يعرفون مصيرهم واستسلموا له بملء إرادتهم، وعلى الأخص الحسين الذي لم يذهب إلى العراق لانتزاع السلطة الدنيوية وإنما طلباً للشهادة التي كتبها الله عليه. فكما ذهب المسيح إلى القدس ليموت على الصليب ذهب الحسين إلى كربلاء لكي يتلقى الآلام المكتوبة عليه منذ بدء الخليقة . وكثيراً ما يشير رجال الدين الشيعة إلى هذا التشابه بين المسيح و«سيد الشهداء» الحسين. وفي بعض النصوص الشيعية يعيش الحسين قبل يوم كربلاء

لحظة مشابهة للحظة التي عاشها المسيح عند اعتقاله في حديقة غتسيمانه عند أسفل جبل الزيتون. وتظهر أيضاً تشابهات واضحة مع التصورات المسيحية عندما يفسر الشيعة آلام الأئمة الأبرياء بأنها آلام بالنيابة ولها وظيفة إنقاذية. وقد تحدث المستشرق الفرنسي هنري كوربان في هذا السياق عن «العلم المسيحي» الشيعي. لكن الفروق بين المعتقدات الشيعية والتصورات المسيحية في هذا الصدد ظاهرة بكل وضوح. فالشيعة، شأنها شأن الإسلام السني، لا تعرف الخطيئة البدئية أو الخطيئة الموروثة، أي لا تؤمن كالمسيحية بأن الإنسان يولد خاطئاً، وهي بالتالي لا تعرف أيضاً مفهوم «الخلاص» ولا يوجد في علم المصطلحات الإسلامية كلمة مناسبة له. بل إن الذنب هو دوماً ذنب تاريخي ـ فردي أو جماعي ـ لا بد من التكفير عنه أو المعاقبة عليه. وهكذا فإن الأئمة الطاهرين من الإثم يتحملون طوعاً جزءاً من العقاب الذي كان سيناله الناس المذنبون ـ المقصود طبعاً فقط «أنصار الحزب» أي الشيعة. فالآلام التي يتحملونها بالنيابة تحمي البشرية من مواجهة العدل الإلهي بكامل حدته. ولذلك فإن فضيلة التضحية بالذات تمنح الأربعة عشر المعصومين دور الوسيط («الوسيلة») بين الله والبشر وتجعلهم يوم القيامة يدافعون عن أتباعهم المذنبين ـ الشيعة ـ بالشفاعة لهم عند الخالق. ويشدد الشيعة بشكل خاص على دور فاطمة كشفيعة يوم الحساب.

وفي وقت مبكر جداً من نشوء العقيدة الشيعية تطور تصور الوجود المسبق للأئمة. صحيح أن الشيعة يؤكدون دوماً أن الأئمة غير خالدين ـ هذه الصفة تقتصر على الله وحده ـ وأنهم يأتون إلى الأرض بصفة بشر وأنهم يموتون ويبعثون، ولكن أرواحهم كانت أول ما خلقه

الله، فقد خلقها بهيئة نورانية قبل جميع المخلوقات الأخرى. أي أنهم لم يخلقوا من تراب وإنما من نور. إلا أن رجال الدين الشيعة يتعين عليهم الحذر دوماً وأبداً من المبالغة في تعظيم الأئمة إلى درجة التأليه. ولقد وقع فعلاً في هذا «المطب» بعض الجماعات الشيعية الهامشية التي ينبذها رجال الدين الشيعة الرسميون ويطلقون على أتباعها اسم «الغلاة». ولم تزل هذه الأفكار سائدة في أوساط الفرقة العلوية في سورية التي تمنح الإمام علياً بشكل خاص مرتبة إلهية. أما المرتبة التي يمنحها الشيعة الاثنا عشرية الرسميون للأئمة فيمكننا استنتاجها من اعتقادهم بأن وجود إمام لا غنى عنه لاستمرار العالم؛ ولو لم يكن هناك إمام لانهار الكون بكامله على الفور.

يلعب الأشخاص الأربعة عشر دوراً كبيراً في المعتقدات الشعبية الشيعية. فزيارة قبورهم والبكاء على مصيرهم المؤلم يعتبران من الأعمال الفضيلة. ولقد أصبحت أضرحتهم في النجف، وكربلاء، والكاظمية قرب بغداد، وفي مشهد وسامراء، على مرِّ القرون، بفضل الأعمال الوقفية والتبرعات التي يقدمها الأفراد والحكام، مؤسسات اقتصادية ضخمة تملك عقارات في مختلف أرجاء العالم. ومنذ تولي ملوك شيعة زمام الحكم في إيران (1501م) تم تحويل الأضرحة إلى مبانٍ فخمة مزودة بقببٍ مغطاة بالذهب. كما أن أسماء الأئمة ـ مع الألقاب التي أُعطيت لهم ـ هي من الأسماء الذكرية المحبوبة جداً. لكن «خلف الأئمة» أيضاً، الذين يسمون في إيران «إمام زاده»، يتمتعون بمكانة رفيعة ويحصلون بعد موتهم على تكريم عظيم كالقديسين. ففي كل مكان في إيران تنتصب الأضرحة القببية للإمام زاده الذين يحظون بتكريم خاص كقديسين محليين. أما أشهر

المزارات فهما ضريح فاطمة المعصومة أخت الإمام الثامن في قم وضريح عبد العظيم في ري جنوب طهران. اسما هذين الوليين أيضاً يطلقان كثيراً على المواليد الجدد. ومن الأسماء المحبوبة أيضاً بشكل خاص أسماء أبناء وأقرباء الحسين الذين قتلوا في كربلاء.

عودة المهدي

حسب المعتقدات الشيعية يعيش الإمام الثاني عشر الغائب متخفياً في مكان ما على الأرض. ولا أحد يعرف ساعة عودته المظفرة ولكن يجب توقعها في أية لحظة. وكان الشيعة في العصور الوسطى يجهزون في بعض المدن الإيرانية الشيعية كل يوم حصاناً بكامل عدته لكي يمتطيه الإمام عند ظهوره دون أي تأخر. وينص دستور جمهورية إيران الإسلامية لعام 1979 في مادته الخامسة على عودة الإمام الغائب ـ كرئيس حقيقي للدولة ـ انطلاقاً من الرغبة الإيمانية في أن «يسرّع الله عودته». [عجل الله فرجه وسهل مخرجه].

ليست مصادفة أن يحمل الإمام الثاني عشر الاسم «محمد» فهو يأتي ليكمل رسالة جدِّه النبي الذي يحمل الاسم نفسه. أما لقبه فهو «المهدي» أي الذي هداه الله إلى الحق. يثير هذا الاسم في نفس كل مسلم إيحاءات بقرب القيامة. فالاعتقاد بمجيء منقذ ومجددٍ للإسلام يسمى المهدي موجود ليس فقط لدى الشيعة، بل هو منتشر في جميع أرجاء العالم الإسلامي لكن فكرة انتظار المهدي لا تتخذ عند السُّنة مثل هذه المكانة المركزية، بل إن التصورات المرتبطة بذلك تتخذ عند الشيعة فقط أشكالاً نموذجية محددة تماماً. وكان الأمل في أن يرسل الله حاكماً «مهدياً» يضع حدّاً للانقسامات السياسية والمذهبية في

الإسلام ويعيد له وحدته وصفاءه الأصلي الخالص، قد نشأ في تلك المرحلة من نهاية القرن السابع عندما تمزقت وحدة الأمة الإسلامية ودخلت في صراعات دامية حول خلافة النبي. وقد ظهر آنذاك عدة دعاة قال عنهم أتباعهم إنهم المهدي أو زعموا هم أنفسهم أنهم المهدي المنتظر.

ومن هنا فإن فكرة المهدي موجودة عند جميع المذاهب الإسلامية التي تشكلت في تلك المرحلة المضطربة. غير أن الأمل المعقود على ظهور المهدي لم يتبلور بشكل واضح وعميق إلّا عندما ارتبط في الوسط الشيعي بالإيمان بفكرة الإمام الغائب. فعندما توفي الإمام الحادي عشر، كما يبدو، دون خلف وترسخ لدى الشيعة شيئاً فشيئاً الإيمان بوجود إمام ثاني عشر غائب عن الأنظار ارتبطت فكرة انتظار المهدي بهذه الشخصية: الإمام الثاني عشر محمد هو «المهدي» الذي سيعود في يوم من الأيام «ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً».

بالنسبة للشيعة بعد الإمام الثاني عشر ـ وحتى عندما يكون غائباً ـ الرئيس الشرعي الوحيد لجميع المسلمين. ولذلك هو أيضاً حسب الدستور الحالي لجمهورية إيران الإسلامية الرئيس الحقيقي للدولة وبالتالي فإن النظام القائم هناك منذ الثورة في سنة 1979 هو نظام مؤقت نظرياً. فعودة المهدي ترتبط منذ أقدم الزمان بتصورات طوباوية عن استعادة ذلك العصر الذهبي الذي كان سائداً في عهد النبي محمد ويتغنى به جميع المسلمين. وقد استطاعت الثورة الإيرانية بكل سهولة شحن هذه اليوتوبيا بمضمون سياسي: فقد حلت محل المجتمع

الخالي من الطبقات، أو غير ذلك من الأهداف الثورية الأخرى، دولة العدل التي سيقيمها المهدي.

سنعرض فيما يلي نصاً يعود إلى أواخر القرن العاشر يوضح كيف يتصور الشيعة عودة المهدي. وهو مأخوذ من «كتاب الإرشاد» الذي جمعت فيه أحاديث عن الأئمة الاثني عشر بقلم الفقيه الشيعي البغدادي محمد المفيد الملقب بالشيخ المفيد.

يسبق ظهور المهدي علامات رهيبة تعلن عن قدومه:

خروج السفياني، وقتل الحسني، واختلاف بني العباس في الملك الدنياوي، وكسوف الشمس في النصف من شهر رمضان وخسوف القمر في آخره على خلاف العادات، وخسف بالبيداء وخسف بالمغرب وخسف بالمشرق، وركود الشمس من عند الزوال إلى وسط أوقات العصر وطلوعها من المغرب، وقتل نفس زكية بظهر الكوفة في سبعين من الصالحين، وذبح رجل هاشمي بين الركن والمقام، وهدم سور الكوفة، وإقبال رايات سود من قبل خراسان، وخروج اليماني، وظهور المغربي بمصر وتملكه للشامات، ونزول الترك الجزيرة، ونزول الروم الرملة، وطلوع نجم بالمشرق يضيء كما يضيء القمر ثمّ ينعطف حتى يكاد يلتقي طرفاه، وحمرة تظهر في السماء وتنتشر في آفاقها، ونار تظهر بالمشرق طولاً وتبقى في الجو ثلاثة أيام أو سبعة أيام، وخلع العرب أعنتها وتملكها البلاد وخروجها عن سلطان العجم، وقتل أهل مصر أميرهم، وخراب الشام، واختلاف ثلاثة رايات فيه، ودخول رايات قيس والعرب إلى مصر، ورايات كندة إلى خراسان، وورود خيل من قبل المغرب حتى

تُربط بفناء الحيرة، وإقبال رايات سود من المشرق نحوها، وبثق في الفرات حتى يدخل الماء أزقة الكوفة، وخروج ستين كذاباً كلهم يدعي النبوة، وخروج اثني عشر من آل أبي طالب كلهم يدعي الإمامة لنفسه، وإحراق رجل عظيم القدر من شيعة بني العباس بين جلولا وخانقين، وعقد الجسر مما يلي الكرخ بمدينة السلام، وارتفاع ريح سوداء بها في أول النهار وزلزلة حتى ينخسف كثير منها، وخوف يشمل أهل العراق، وموت ذريع فيه، ونقص من الأنفس والأموال والثمرات، وجراد يظهر في أوانه وفي غير أوانه حتى يأتي على الزرع والغلات، وقلة ريع لما يزرعه الناس، واختلاف صنفين من العجم، وسفك دماء كثيرة فيما بينهم، وخروج العبيد عن طاعة ساداتهم وقتلهم مواليهم، ومسخ لقوم من أهل البدع حتى يصيروا قردة وخنازير، وغلبة العبيد على بلاد السادات، ونداء من السماء حتى يسمعه أهل الأرض كل أهل لغة بلغتهم، ووجه وصدر يظهران من السماء للناس في عين الشمس، وأموات ينشرون من القبور حتى يرجعوا إلى الدنيا فيتعارفون فيها ويتزاورون.

ثم يختم ذلك بأربع وعشرين مطرة تتصل فتحيا بها الأرض من بعد موتها وتعرف بركاتها وتزول بعد ذلك كل عاهة عن معتقدي الحق من شيعة المهدي، فيعرفون عن ذلك ظهوره بمكة فيتوجون نحوه لنصرته. كما جاءت بذلك الأخبار.

ومن جملة هذه الأحداث محتومة ومنها مشترطة والله أعلم بما يكون، وإنما ذكرناها على حسب ما ثبت في الأصول وتضمنها الأثر المنقول وبالله نستعين وإياه نسأل التوفيق.

الفصل الثاني

مواكب العزاء والمآتم

أصول شعائر يوم عاشوراء

عندما مر «التوابون»، الذين قرروا التضحية بأنفسهم جماعياً، في سنة 680م/ 61 هـ ـ بعد أربع سنوات من استشهاد الحسين ـ في سهل كربلاء وهم في طريق مسيرتهم إلى الموت، توقفوا يوماً وليلة عند قبر الإمام لكي يبكوا ويندبوا ووجوههم ملونة بالسواد؛ ليس حزناً على موت الحسين وإنما بالدرجة الأولى حزناً على أنفسهم لما اقترفوه من ذنب. وطلبوا من الإمام الشهيد المغفرة عن فشلهم. يشكل هذا الاعتراف العلني بالذنب أمام قبر الإمام والبكاء على الخطيئة التي وقعوا فيها الجذر الأول لذلك المركّب المعقد من شعائر التكفير والحزن التي يؤديها الشيعة بشكل خاص في الأيام العشرة الأولى من شهر محرم وتصل إلى ذروتها في يوم وفاة الحسين، العاشر من محرم والمسمى يوم «عاشوراء». في هذه الأيام يستحضرون استشهاد الإمام الثالث ويتيحون المجال لأتباعه للمشاركة في آلامه والتكفير عن جزء من ذنوبهم الفردية وعن الذنب التاريخي الجماعي الذي ارتكبه الشيعة بتخاذلهم عن نجدته.

حاول بعض الباحثين إعادة منشأ طقوس المحرم أو طقوس عاشوراء إلى معتقدات من مرحلة ما قبل الإسلام أو من خارج الإسلام، إلى، مثلاً، الندب الشرقي القديم حزناً على مقتل إله الربيع تموز (أدونيس) أو على البطل الإيراني الأسطوري سياوش (الذي اتهم زوراً بفساد أخلاقه ولم تظهر براءته إلا بعد قتله فأصبح دمه مضرب المثل للدم البريء المهدور). ولكن لسنا بحاجة إلى العودة هكذا بعيداً إلى الوراء لاسيما أن التأثير الإيراني على الشيعة كان في العصور الوسطى لم يزل ضعيفاً جداً ولم يأخذ مداه الكامل إلا منذ القرن السادس عشر. في الأصل كانت الشيعة ظاهرة رافدية وهنا في بلاد الرافدين كانت طقوس البكاء كوسيلة للتكفير وكجزء من الصلاة منتشرة على نطاق واسع، وفي أزمنة قريبة من بدايات نشوء الشيعة، لدى جميع الجماعات الدينية الكبيرة الممثلة في العراق: لدى المانوية وأيضاً لدى اليهود والمسيحيين والمسلمين الأوائل. وفي هذا الصدد يقول الكاتب المسيحي إفريم سيروس من إيديسّا (توفي سنة 373) إن البكاء أثناء الصلاة ينظف الجسم من الخطايا. ولقد عرفت اليهودية الرافدية والإسلام العراقي شخصية «البكّاء» الذي يمثله الحاخام إبراهام فيدونايا (المتوفى سنة 637م) والفقيه الإسلامي الحسن البصري (المتوفى سنة 728م) وغيرهما. لا بل إن التلمود البابلي يحذر من عواقب المبالغة في البكاء لأنه يمكن أن يؤدي إلى فقدان البصر.

يشكل البكاء الجماعي على قبر الحسين في كربلاء أقدم شكل للطقوس الشيعية. وهناك أدلة على وجود شكلين لطقوس التكفير والشكوى في العصر الوسيط: الأول هو المرثية التي يؤديها مغنٍّ،

والثاني هو الموكب. وكلا الشكلين لا يزالان حتى اليوم يلعبان دوراً بارزاً، وكلاهما ساهم في نشوء طقوس التعبير عن الألم أو «التعزية». فالمرثية (الجمع مراثي، أو النوح؛ وفي اللغة الفارسية النوحة أو المأتم) تروي لجمهور من الباكين الأحداث المأساوية التي وقعت فى كربلاء. وعندما يجري تمثيل المشاهد الواردة في القراءة بصورة إيمائية صامتة تكون قد اتُّخذت الخطوة الأولى إلى الدراما. ومن العناصر الدرامية الهامة أيضاً التناغم المتبادل بين القارىء وردود أفعال الجمهور الذي يتجاوب مع القراءة بالصراخ والهتاف كتجاوب الشاطىء مع تلاطم الأمواج ويشكل نوعاً من الكورس المشارك في ما يجري. ولقد أشار البعض بحق إلى التشابه بين هذه الطقوس والأصول التعبيرية للتراجيديا الإغريقية.

أما الجذر الثاني للتعبير عن الألم أو «التعزية» فهو المشاهد التي كانوا يمثلونها منذ زمن مبكر خلال المواكب والمسيرات التي كانوا يقومون بها في العاشر من محرم. في سنة 963م/ 351 هـ سُمح للشيعة في بغداد لأول مرة بالاحتفال علناً بذكرى كربلاء. كان الخليفة قد أصبح آنذاك دمية في يد قائد جيشه الإيراني البويهي معزّ الدولة ووزيره المهلّبي. كان الرجلان معروفين بميولهما الشيعية، وتحت حمايتهما كان في وسع الشيعة الاحتفال علناً بأعيادهم في بغداد ذات الأغلبية السُّنية. ويصف مؤرخ بغدادي ما جرى في تلك المناسبة سنة 963م/ 351 هـ على الشكل التالي: «في العاشر من المحرم أُغلقت الأسواق في بغداد وتوقفت جميع أشكال البيع: فالقصابون توقفوا عن الذبح، والطباخون عن الطبخ. وكان الناس يطلبون بلا انقطاع جرعة من الماء. وفي السوق نصبت خيام غطيت

باللباد. وكان النساء يسرن في الأزقة منفوشات الشعر وهن يندبن ويلطمن على وجوههن؛ كان هذا يوم النواح على موت الحسين».

يعرض هذا التقرير، الذي هو أقدم تقرير وصلنا عن المسيرات الدينية في العاشر من محرم، الطقوس في صيغة متطورة. ولكن ما من شك في أن الشيعة كانوا يحتفلون بعيدهم قبل ذلك أيضاً. غير أن الاحتفال الذي جرى سنة 963م/ 351 هـ كان أول احتفال يجري بموافقة السلطات العليا، الأمر الذي صار يؤدي اعتباراً من ذلك الوقت دوماً وأبداً إلى صدامات دامية مع المشاهدين السُّنة الذين كانت الطقوس الشيعية تستفز مشاعرهم وخاصة عندما يرافق ذلك هجوم على صحابة النبي ـ خصوم الإمام الأول علي بن أبي طالب. لم تسجل الملاحظة القصيرة للمؤرخ البغدادي نواح النساء فحسب وإنما أيضاً نصب الخيام، التي تمثل مخيم الحسين ورفاقه في كربلاء، وتسوّل المشاركين في الموكب طلباً لجرعة من الماء: فهم يعبرون بذلك عن العطش الذي عاناه الشهداء عندما قُطع عليهم الطريق المؤدي إلى الفرات. ولم تزل هذه المشاهد حتى اليوم تشكل جزءاً من طقوس مسيرات عاشوراء.

خلال حكم البويهيين الشيعة المنحدرين من شمال غرب إيران (945م ـ 1055م) ـ الذين لم يمسوا منصب الخليفة السني في بغداد ـ حصلت الطوائف الشيعية في العراق وإيران على الحماية والدعم. وهذه الحقبة هي من أهم الحقبات في تاريخ تطور الطقوس الشيعية والفقه والأدب الشيعي. ويبدو أيضاً أن عدد الشيعة قد حقق آنذاك زيادة كبيرة في المدن الإيرانية أيضاً. فالجماعات الشيعية نجدها في

القرن الثاني عشر ليس فقط في قم وإنما أيضاً في ري (جنوب طهران الحالية) وفي فرامين، وقزوين. وآوه، وهمذان، وكاشان، وأصفهان، وكذلك على الساحل الجنوبي لبحر قزوين وفي المدن الإيرانية الشرقية سبزوار، ونيسابور، وطوس. وبالقرب من طوس، في مشهد، كان ضريح الإمام الثامن علي الرضا. وباتجاه الغرب أيضاً وجدت الشيعة طريقها إلى الانتشار؛ فسكان مدينة حلب الواقعة في شمال سورية كانوا آنذاك بمعظمهم من الشيعة.

تشيّع إيران في عهد الصفويين (1501م ـ 1722م)

في سنة 1501 كان إسماعيل الذي لا يزيد عمره على خمسة عشر عاماً الرئيس الروحي لطريقة صوفية آذربيجانية من الدراويش فأعلنه أتباعه التركمان في تبريز ملكاً للملوك (شابان شاه). وخلال أقل من عشر سنوات، حتى عام 1510م، كان قد أخضع لحكمه إيران بكاملها والعراق. وبذلك كان إسماعيل مؤسس الأسرة الحاكمة الصفوية التي حكمت حتى سنة 1722م وجعلت إيران بلداً شيعياً. إذ كان إسماعيل عند اعتلائه العرش قد أعلن العقيدة الشيعية مذهباً رسمياً للدولة. ولكن وبما أن غالبية السكان كانوا لا يزالون من السُّنة، ولأنه لم يكن في إيران طبقة من رجال الدين الشيعة المزودين بما يكفي من العلم والمعرفة، قام هو وخلفاؤه بجلب رجال دين عرب من العراق ومنطقة الخليج، ومن جنوب لبنان الذي كان شيعياً منذ قديم الزمان، دفعوا بكل تصميم وحزم حركة التشيع في البلاد قدماً نحو الأمام. ولم يزل هناك حتى اليوم كثير من عائلات الملالي الإيرانية ذات الأُصول العربية، غالباً من منشأ لبناني. وفي نهاية

القرن السابع عشر أصبحت إيران بلداً شيعياً بأغلبية كبيرة. وكانت قد نشأت في هذه الأثناء طبقة من رجال الدين الشيعة بكل ما في الكلمة من معنى.

من العهد الصفوي حصلنا على أول التقارير التي كتبها رحالة غربيون ووصفوا فيها بالتفصيل الدقيق طقوس المحرم. وكان أول هذه التقارير للرحالة الإنجليزي توماس هربرت الذي طبع كتابه «قصة بضع سنوات من الترحال في إفريقيا وآسيا والهند» سنة 1634 في لندن.. وقد جاء فيه قوله: «إنهم يحتفلون كل عام بوفاة الحسن، الابن الأكبر لعلي، بالعديد من المراسم والطقوس. ولقد رأيتهم كيف يدورون في الشوارع بأعداد كبيرة تسعة أيام متواصلة وهم يصرخون بأعلى صوتهم حسن، حسن، حتى تختفي أصواتهم من شدة الصراخ. وفي اليوم التاسع يعثرون عليه (وهم يعتقدون أنهم فقدوه في غابة) أو على شخص آخر بدلاً منه ثم يجلبونه، رجالاً وبنات وفتياناً، مع الهتاف حسن، حسن، ومع الصفير وقرع الطبول، إلى الجامع. وهكذا ينهون احتفالاتهم المفرطة ببعض الإعجاب والشكر».

أما الشاهد الثاني فهو الرحالة التركي إيليا تشلبي الذي زار بلاط شاه فارس سنة 1640م بعد سنة واحدة من عقد معاهدة السلام بين الصفويين والسلاطين العثمانيين السنيين. يصف تشلبي التأثير الذي تحدثه قراءة مرثية، أي قصيدة رثاء لمقتل الحسين، على جمهور من المستمعين: «عندما يصل القارىء إلى الموقع الذي يصف كيف قتل اللعين شمر الإمام الحسين المحاصر يُحمَل إلى الساحة فتيانٌ صغار يمثلون جثث أبناء الإمام المقتولين، وعند مشاهدة هذه التمثيلية تنطلق من الجمهور صرخات وولولات ويصيح الجميع بصوت واحد

«آه يا حسين!» وجميع المشاهدين يبكون ويندبون. مئات من أتباع الحسين المتعصبين يضربون أنفسهم ويجرحون أنفسهم بالسيوف والسكاكين في رؤوسهم ووجوههم وأجسامهم. فهم يدعون دمهم يسيل حبّاً بالإمام الحسين. فتتشكل بقع من الدم على الحشيش الأخضر ويصبح المرج كحقل من شقائق النعمان. بعد ذلك ينقل الموتى ظاهرياً إلى خارج الساحة ويكمل القارىء حكاية استشهاد الحسين حتى نهايتها». تقرير إيليا تشلبي هو أقدم تقدير يتحدث عن جرح الشيعة لأنفسهم بالسيوف والسكاكين. وبحمل فتيان صغار أمام الجمهور يمثلون جثث أبناء الحسين المقتولين يتكون لدينا مشهد آخر من المشاهد التي أدت إلى التعزية اللاحقة. ولم تزل مثل هذه الصور «الحية» مألوفة حتى اليوم في مسيرات عاشوراء.

أما الرحالة الفرنسي جان ـ بابتيست تافرنييه فكان سنة 1667 من أوائل الذين شاهدوا طقوس قتال الشوارع حيث تقوم المسيرات التي شكلتها أحياء المدينة بتمثيل معركة كربلاء تمثيلاً حياً بأن ينخرط المشاركون من كلا الجانبين بالمعمعة وهم يصرخون «يا حسين» لكي يعبروا عن استعدادهم للقتال إلى جانب الإمام وللاستشهاد في سبيله إذا اقتضى الأمر.

كما أن إنغلبرت كيمبفر من لمغو الذي أقام سنة 1684/ 1685 في أصفهان كطبيب وسكرتير للبعثة السورية هناك كتب يقول: «اسوأ الاصطدامات تحدث في الذكرى السنوية لمقتل الحسين. تحت تأثير الانفعال الشديد للمصير الشائن الذي لقيه [الشيعة] تهاجم الجماهير بعضها بعضا ويدمي كل طرف الآخر ضرباً على الرأس».

المرثية

يكمن أصل شعائر عاشوراء في الشكوى ولوم الذات الناجمين عن تذكر أحداث كربلاء ومن التعبير عن هذه الشكوى بالحركات والصور وبالمشاهد الإيمائية، وفي وقت لاحق بالمشاهد الحوارية أيضاً. ويسمى البكاء على الميت باللغة العربية «المرثية» أو «النوح» وأيضاً «تعزية» (التعبير عن المشاركة في الحزن)؛ وباللغة الفارسية «نوحة» أو «مأتم». إلا أن هذه الكلمات اتخذت مع مرور الزمن في البلدان المختلفة من العالم الشيعي معاني مختلفة في المنطقة العربية والفارسية. تعني التعزية مشاهد التعبير عن الألم، بينما تعني في الهند ما يحمله المشاركون في الموكب من نعوش وقبور. وكلمة مأتم الفارسية تستعمل في الهند للتعبير عن ضرب الذات بالسياط.

في إيران نشأ النموذج الأول الأصلي للمرثية في نهاية القرن الخامس عشر على يد حسين واعظ كاشفي مؤلف كتاب «روضة الشهداء». وقد أصبحت الكلمة الفارسية «روزة» المقابلة لكلمة «روضة» العربية الاسم المعبر عن جميع أشكال هذا النوع من الرثاء. من الممكن استدعاء قارىء هذه المرثيات، الذي يسمى «قارئ الروزة» (روزه خون)، إلى البيوت أيضاً. وهو من الغرباء القلائل الذين يسمح لهم بالدخول إلى القسم الخاص من المسكن (أندرون) الذي تقيم فيه أيضاً النساء. وتشارك النساء بمنتهى الحيوية والحماس في عروض الروزه خون. وفي المدن والأحياء الشيعية يوجد أماكن للاجتماعات مخصصة لأداء طقوس عاشوراء. في إيران تسمى الأماكن المخصصة لمثل هذه الحفلات «تكية» أو «حسينية»، وفي الهند تسمى

«عاشور خانه». تتولى النقابات والروابط والجمعيات في الأحياء، والتي تنظم أيضاً المواكب والمسيرات الدينية، الإشراف على هذه الأماكن التي لا تستعمل فقط لحفظ أدوات العبادة وإنما أيضاً كمقر للجمعية تقام فيه حفلات المراثي واللطم والتعازي. في إيران تكون عادة مزينة بصور تعبر عن مراحل التعزية.

لا تقتصر قراءة المراثي، أو تعزية الروزة، على شهر التعازي محرم ولا على أيام استشهاد الأئمة؛ بل يمكن أن تحدث في أي يوم من أيام السنة في المناسبات الاحتفالية. ومن الأشكال الاستعراضية الخاصة «تعليق الشاشة» (بردِداري): تُعلق شاشة كبيرة يبلغ ارتفاعها مترين وعرضها أربعة أمتار رُسمت عليها مشاهد من كربلاء تتوسطها عادة صورة كبيرة للحسين وهو راكب على حصان أبيض ويشق رأس أحد الأعداء بالسيف. ويقف القارىء أمام اللوحة مشيراً بعصاه إلى كل مشهد من مشاهدها وهو يشرح القصة التي يعبر عنها هذا المشهد.

الأيام العشرة الأولى من محرم

تشكل الأيام العشرة الأولى من شهر محرم، الشهر الأول من السنة الهجرية، ذروة موسم الاحتفالات الشيعية. وبما أن السنة القمرية الإسلامية أقصر 11 يوماً من السنة الشمسية فإن جميع التواريخ تتغير كل سنة مقابل تواريخنا بمقدار 11 يوماً. ولذلك لا تتكرر مواعيد الأعياد الإسلامية كعيد رمضان أو أعياد المحرم كل سنة في نفس الموعد وإنما تتحرك عبر السنة الشمسية نحو الوراء بحيث تأتي كل سنة متقدمة 11 يوماً عن موعدها الشمسي.

ترمي شعائر الأيام العشرة الأولى من محرم إلى التذكير بالوقت الذي حاصرت خلاله القوات الحكومية التابعة لوالي البصرة الإمام الحسين والمجموعة الصغيرة المرافقة له في سهل كربلاء. وتتركز الاحتفالات في كل يوم من الأيام العشرة على مقطع من الأحداث الأليمة التي وقعت هناك؛ قراءات ومسيرات تحمل الشعارات والأعلام والصور الحية ثم أداء طقوس التعزية والتعبير عن الألم والندم تتتالى وفق برنامج محدد مسبقاً يخصص اليوم الأول حتى اليوم الثالث من محرم لتذكر وصول الحسين إلى كربلاء ولمفاوضاته غير المثمرة مع ممثلي الخليفة يزيد.

وفي اليوم الرابع يحتفلون بالشهيد الحرّ التميمي قائد قوات الخيالة المعادية الذي يلعب في طقوس العزاء الشيعية دور «المجرم التائب»: فهو يندم على ما فعل وينتقل إلى صف الحسين ثم يلاقي حتفه وهو يقاتل إلى جانبه. وفي اليوم الخامس يبكون على استشهاد عون ومحمد الابنين الصغيرين لأخت الحسين زينب. أما اليوم السادس من محرم فهو يوم ابن الحسين البكر علي الأكبر الذي قتل إلى جانب أبيه وتوفي في حضنه وهو في الثامنة عشرة من عمره. في بعض الأماكن يحتفلون في هذا اليوم أيضاً بوفاة الابن الأصغر للإمام الحسين الرضيع علي الأصغر الذي قتل بسهم أصابه في حلقه. وإحياءً لذكراه يحملون معهم في مسيرات هذا اليوم سريراً صغيراً يعبر عن مهده. في اليوم السابع من محرم يحيون ذكرى الفتى القاسم بن الحسن العريس العاثر الحظ الذي سقط شهيداً في يوم عرسه مع ابنة عمه الحسين. وفي اليوم الثامن يحتفلون بذكرى العباس، الأخ غير الشقيق للإمام الحسين، الذي قُطعت يداه عند محاولته جلب الماء من

الفرات للشهداء المتضورين عطشاً. ويشكل اليوم التاسع (تاسوعاء) واليوم العاشر (عاشوراء) ذروة الاحتفالات. في هذين اليومين تكون وفاة الإمام الحسين نفسه موضوع الطقوس ومآتم العزاء. في العادة لا يظهر الأشخاص الذين يضربون نفسهم بالسياط ويجرحون رؤوسهم بالسيوف في الأيام الثمانية الأولى وإنما فقط في هذين اليومين. أما منظمو المسيرات والاحتفالات الشعائرية فهم جمعيات مدينية تعمل من ناحية المبدأ بصورة متشابهة سواء في بلدة النبطية اللبنانية أو في الكاظمية العراقية أو في إيران أو في حيدر آباد الهندية.

التعزية

كلمة «تعزية» العربية تعني في الحقيقة «المشاركة في الحزن» وكانت تعني في الأصل مجمل الشعائر التي تؤدى في يوم عاشوراء. لكن معناها في إيران تغير قليلاً وأصبحت تعني شعائر التعبير عن الألم والندم التي يجري فيها تمثيل مقاطع مما حدث في كربلاء في مشاهد حوارية مؤثرة، بينما تعني في الهند مجموعة النعوش التي يحملها معهم المشاركون في مواكب العزاء. وكانت شعائر عاشوراء في بغداد تحتوي منذ القرن العاشر المشاهد التالية: كانت تنصب الخيام التي تمثل معسكر الحسين، وكان سكانها يطلبون من المارة والمشاهدين جرعة من الماء للتذكير بالظمأ الشديد الذي عاناه الشهداء. وتتحدث تقارير الرحالة التي تعود إلى العهد الصفوي (1501م ـ 1722م) عما كان يحمله المشاركون في المسيرات من أشياء وعن صور «حية» تعبر عن الأطفال الموتى في نعوشهم. أما المشاهد الدرامية الحقيقية التي ترافقها حوارات تعبر عن الألم والندم فلا يوجد أي دليل على وجودها في

العهد الصفوي. ويبدو أن التعزية نشأت في القرن الثامن عشر في إيران. وأقدم شاهد على المشاهد التمثيلية تقرير الرحالة الإنجليزي وليام فرانكلين من عام 1786 ـ 1787م. وكان رحالة إنجليزي آخر هو جيمس مورير، الذي سافر خلال الأعوام 1810م حتى 1816م من الهند إلى القسطنطينية، أول أوروبي يصف التعزية بالتفصيل. وفي القرن التاسع عشر كثُرت التقارير الأوروبية. الصورة المعروضة أعلاه لمشهد من التعزية مأخوذة من تقرير للألماني هاينريش بروغش عن البعثة الملكية البروسية إلى إيران (1860/ 1861). يظهر في الصورة الممثلون، ومن بينهم عدة أطفال، وفي أيديهم لفات الورق؛ فلم يزل مألوفاً حتى اليوم أن يقرأ الممثل النص المكتوب على ورقة وأن يقوم قائد التمثيلية ـ وهو غالباً مؤلف النص ـ بإعطاء التعليمات وبمساعدة القرّاء في حال التلكؤ دون أن يشعر الجمهور أن هذا التدخل يُفقدُ المَشاهدَ طابعها المثالي.



تعازي حسينية

يتحدث روي مُتَّحدة الذي كتب واحداً من أفضل الكتب عن العالم الروحي للشيعة الإيرانيين، عن التعزية قائلاً: «بصورة عامة يتحدث الأبطال شعراً بينما يتحدث الأوغاد نثراً. يرتدي الأشخاص الرئيسيون الملابس الخضراء والبيضاء ويرتدي الخصوم الملابس الحمراء. ومنذ عدة أجيال يرتدي الجنود عباءات الضباط البريطانية بدلاً من القمصان المصفحة. ومنذ أكثر من مائة عام يدور جزء من الاستعراض حول «مبعوث الأوروبيين» الذي يظهر في بلاط يزيد، مضطهد الحسين، ويطلب إنقاذ حياته. الشخصيات الدينية تضع غالباً نظارات، وفي الآونة الأخيرة تضع الشخصيات السيئة نظارات شمسية. وتجدر الإشارة إلى أن شعائر التعزية ليست نوعاً من المسرح الخيالي ولا تريد إطلاقاً أن تكون كذلك. وعاء مملوء بالماء يمثل نهر الفرات وعندما يظهر الملاك جبرائيل حاملاً مظلة يعرف الجمهور أنه قد جاء لتوّه من السماء... إن الشعور المشترك وانعدام الحواجز بين الممثلين والجمهور هما اللذان يمنحان التمثيليات قوتها المؤثرة. فالممثلون والمشاهدون يتداخلون فيما بينهم كما يتداخل في المخطوطة الفارسية النص مع الرسومات الصغيرة المنمنمة. عندما يمثل اليوم مشهد العرس في القطعة المتعلقة بالقاسم، والتي وصفها فرانكلين قبل مائتي سنة، توزع على الجمهور قطع الحلوى على نغمات الموسيقى الاحتفالية. بعد ذلك يظهر فجأة في المشهد المفرح حصان علي الأكبر، الابن البكر للحسين، الذي دافع عن المجموعة الصغيرة أثناء العرس. يدخل قاسم بين المشاهدين (لأن المسرح يكون على شكل دائري) لكي يصل إلى «ساحة المعركة» ثم يعود بعد وقت قصير على رأس موكب يحمل ابن الحسين الميت مرفوعاً على

الأيدي فوق الرؤوس. عندئذ ينهض جميع المشاهدين ويبكون كما في موكب جنازة حقيقية. وبما أن المشاركة في حمل النعش علامة على التقدير الكبير للشخص المتوفى يرفع الناس الواقفون على مسافة بعيدة أيديهم إلى الأعلى وكأنهم يلامسون النعش. يوضع النعش على نغمات الموسيقى الحزينة على المسرح وبعد ذلك تعود موسيقى العرس المرحة. وفي الوقت الذي تتناوب فيه المشاهد المتناقضة يتوزع الجمهور بين حالتي الضحك والبكاء. في هذه الأثناء يكون قائد التمثيلية (المخرج) قد ذهب إلى المسرح ليقرأ نصوصاً تروي إحدى القصص وكلما وصل إلى لحظة حزينة يضرب على صدره بمنتهى القوة والانفعال. يتعين على الممثلين ألا يتماهوا مع الأشخاص الذين يمثلونهم. وهذا ممنوع من الناحية الدينية أيضاً على الرغم من الاعتقاد السائد بأن دور الحسين لا يستطيع تمثيله بشكل جيد إلا شخص تقي وأن تمثيل دور الشمر (قاتل الحسين) لا يمكن أن يؤديه بشكل مقنع إلا شخص سيِّئ. وبدلاً من ذلك يسيطر الفرح والأسى حسب مجريات الأحداث على الممثلين والمشاهدين على حدٍّ سواء. لا بل إن بعض الممثلين يقولون إنهم يتجولون نتيجة التأثر بانفعالات المشاهدين. وتتولد انفعالات المشاهدين بواسطة الإشارات التي تعبر عن المضمون العاطفي للأحداث التي يجري تمثيلها. وبما أن ما يجري ليس مسرحاً يعتمد على التشويق والمفاجأة وشد الأعصاب لأن الجميع يعرفون الأحداث مسبقاً، فإن نقاط الذروة، أي الحالات الانفعالية القصوى، لا ترتبط دوما بالاحداث الحرجة، بل إنها تأتي غالباً عندما تظهر الإشارات الحرجة. فالحالة القصوى لمسرحية عاشوراء لا تحدث عندما يقتل الحسين على خشبة

المسرح وإنما في اللحظة التي يرتدي فيها القميص الأبيض. إذ إن الحسين ذهب إلى كربلاء وهو على علم تام بالنبوءة القائلة بأنه سيقتل هناك حيث يعبر عن ذلك في المسرحية بقوله: «**الناس يسافرون في الليل ومصيرهم يسافر لملاقاتهم**» . وارتداء الحسين قميص الموت (الكفن) هو الرمز النهائي إلى أنه قد اختار الموت شهيداً. هنا تصل مشاعر الحزن والألم ذروتها القصوى ليس لأن المشاهدين «يتعاطفون» مع «الشخص» الذي يمثله الممثل وإنما لأنهم يشعرون بالبعد الدرامي لدور الشهادة التي يذكّرهم بها».

كان القرن التاسع عشر العصر الذهبي للتعزية. . خلال رحلة إلى بريطانيا في سنة 1873 حضر الشاه ناصر الدين حفلة موسيقية في قاعة آلبرت هولّ في لندن فأعجب بها كل الإعجاب. ولما عاد إلى بلاده أمر ببناء «تكية الدولة» في طهران لأداء شعائر «التعزية». وهي نوع من مسرح أمفي الدائري المغطى بقبة قماشية لحمايته من الشمس. وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبح لكل مدينة في إيران مكان ثابت لإقامة التعزية. لكن هذه الطقوس الدينية الفارسية تلقت ضربة كبيرة عندما منعها الحاكم البهلوي الأول رضا شاه (1925م ـ 1941م) الذي حاول ـ مثل كمال آتاتورك في تركيا ـ القضاء كلياً على تأثير الدين على الحياة العامة ومنع جميع شعائر عاشوراء. بعد ذلك لم يكن من الممكن إقامة مآتم العزاء ومواكب اللطم إلا سراً. وبعد عزل رضا شاه على يد الإنجليز سنة 1941 انتعشت شعائر محرم من جديد لكنها لم تتعافَ أبداً من الانقطاع الذي دام نحو عقدين من الزمن؛ فلم تستعد في إيران أهميتها السابقة لأن معارضتها لم تقتصر على الحاكم الإصلاحي وحده بل إن رجال الدين الشيعة

أيضاً كانوا ينظرون بعين الريبة إلى هذه المشاهد المسرحية. «لم يكن في وسع رجال الدين اتخاذ موقف واضح من هذا المسرح الشعبي الصوفي. فكان بعضهم يقبله كأداة فعالة لتذكير الجماهير بأهمية رسالة الحسين. ألم يقل سيد الشهداء نفسه: «**سوف أُقتل لكي تبكوا؟**». بينما كان آخرون يدينون هذا المسرح ويعتبرونه محاولة فجة لتمثيل أشخاص مقدسين لا يمكن لأي تمثيل أن يرقى إلى مستواهم وبالتالي فإنه سيشوه شخصيتهم ويسيء لها» (روي متّحدة). أما في إيران الحالية فكانت التعزية ـ أو ما تبقى منها ـ غير ممنوعة إنما غير مستحبة. لكنها بدأت تظهر من جديد حتى في شوارع طهران وساحاتها.

الضرب على الصدر وجلد الذات

«خلال الأيام العشرة الأولى من محرم تكون البلاد كلها في حالة من الحزن. الملك والوزراء والموظفون يرتدون الملابس السوداء أو الرمادية. الجميع تقريباً يتصرفون هكذا. لكن الشعب لا يكتفي بهذا الحداد المنظم. فالقميص الذي لا يغلق عند الفرس، حسب الطريقة الأوروبية أو العربية، في منتصف الصدر وإنما على الجهة اليمنى، يجب أن يبقى مفتوحاً بحيث يظهر الجلد تحته. وهذه علامة الحزن الشديد. إذ يشاهد المرء سائقي الحمير والجنود والفراشين (خدم الطبقة الحاكمة) والخنجر على جنبهم والقبعة على رأسهم، وهم يتجولون هكذا بقميص مفتوح وصدر عار. يجمعون أصابع يدهم اليمنى على شكل طاسة ويضربون نفسهم بها بعنف وبإيقاع متواتر تحت الصدر الأيسر. ينتج عن ذلك صوت عميق يسمع

إلى مسافات بعيدة عندما يشارك في الضرب كثير من الناس ويكون له أبلغ التأثير على السامع. ويرافق كل هذا القراءة التي لا غنى عنها في مآتم العزاء. في بعض الأحيان تكون الضربات ثقيلة ومتباعدة بحيث يبدو الإيقاع بطيئاً وخمولاً وفي أحيان أخرى تكون قوية وسريعة الإيقاع بحيث تحرك المشاهدين. وبعد وقت قصير يشارك الجمهور بكامله تقريباً، وخاصة النساء في أداء هذه الطقوس. بناء على إشارة من رئيس الجماعة يقرأ جميع الأعضاء ويضربون نفسهم ثم يبدأون القفز نحو الأعلى في مكانهم وهم يصرخون بصوت مقتضب وبفواصل زمنية قصيرة أو أطول: حسن! حسين! حسن! حسين!».

يعود هذا الوصف لشعائر الضرب على الصدر إلى الكونت غوبينو الذي كان دبلوماسياً في إيران من سنة 1855م حتى سنة 1858م.

وكان إيليا تشلبي (1640م) قد ذكر في تقريره المذكور أعلاه (ص64) الضرب على الصدر. ويبدو أن الضرب على الصدر هو من أقدم شعائر عاشوراء. وهو من الشعائر التي يمكن أن يؤديها جميع الناس بمن فيهم الشيوخ والنساء والأطفال ولا يعترض عليه رجال الدين. إلى جانب الطريقة البسيطة هناك طريقة عنيفة يصفها غوبينو ولا يستطيع تأديتها سوى رجال أقوياء وغالباً من الشباب. وتؤدى هذه الطريقة العنيفة بيد واحدة، باليد اليمنى، أو بكلتا اليدين. في الحالة الأخيرة التي تسمى «عجمي» يرفع الرجال ذراعيهم بالتناوب فوق الرأس ثم يتركونهما يسقطان بأقصى قوة على الصدر. ويتحدث دافيد بينولت الذي شاهد شعائر الضرب في حيدر آباد الهندية عن

الأصوات القوية الناجمة عنها؛ ويقول الموظف الكولنيالي البريطاني توماس ليلّ، الذي كان في العراق خلال الحرب العالمية الثانية، إن دوي الضرب على الصدر في النجف كان يسمع في الليالي الهادئة حتى مسافة ثلاثة أميال في الصحراء. لكن هذه الصيغة الحادة من الضرب على الصدر لا يؤديها إلا الرجال الأقوياء، وغالباً الشباب، الذين يعبرون بها عن مهاراتهم الرياضية بكل ما في الكلمة من معنى.

يصف غوبينو أيضاً طقوس فرق دينية يسميهم الفرس «بربري»: «فهم يحملون في أيديهم سلاسل حديدية وإبراً مدببة. وبعضهم يحملون في كل يد قرصاً من الخشب. في المواكب الاحتفالية يدخلون إلى التكية ويهتفون ـ بصورة بطيئة في بادىء الأمر ـ بنغمة رتيبة ـ هتافاً مؤلفاً من كلمتين فقط: حسن! حسين! حسن! حسين! ويرافقهم عازفو الطبلة بضربات متسارعة الإيقاع. عندئذ يبدأ الأشخاص الذين يمسكون بأيديهم أقراص الخشب بضربها على بعضها بإيقاع متواتر ثم يبدأ الجميع بالدوران. ويرافقهم الجمهور بأن يؤدي شعيرة الضرب على الصدر بالطريقة الموصوفة أعلاه. بعد فترة من الزمن يبدأ «البربري» ضرب نفسهم بالسلاسل الحديدية، في بادىء الأمر ضرباً خفيفاً فقط وبمنتهى الحذر. بعد ذلك يشتد انفعالهم ويضربون بدرجة أقوى. ثم يبدأ أولئك الذين يحملون الإبر بوخز أنفسهم في الذراعين والخدين. فيسيل الدم وينتشي الجمهور ويشهق بالبكاء ويصل الانفعال درجة قصوى. ولكن إذا ما تجاوز الانفعال الحدود يتدخل رئيس الفرقة، الذي يتحرك بين الصفوف، يحمس الضعفاء ويهدىء المبالغين في الحماس، فيأمر بإيقاف الموسيقى فجأة وينهي كل شيء. من الصعب جداً أن يبقى المرء دون

تأثر بهذه المشاهد. فهو يشعر تجاهها بالشفقة والتعاطف والاستياء في بعض الأحيان. يشاهد المرء كيف أن البربري يرفعون في اللحظة التي ينتهي فيها الرقص، أيديهم الملفوفة بالسلاسل نحو السماء ويصرخون بصوت عميق وبنظرة خاشعة واثقة «يا اللّه» بحيث إن المشاهد يقف مشدوهاً أمام هذه الدرجة العالية جداً من الروحانية والتسامي».

وقد لاحظ غوبينو بنظرته الحادة أن هذا الجلد يجري تحت رقابة صارمة. ويحدث هذا بشكل خاص عندما يشارك أحداث فيه. عندئذ يحرص الكبار بمنتهى العناية على ألا يصابوا بجروح خطيرة. في الأوقات الحالية تكون هناك عادة سيارات إسعاف بالقرب من الموكب. أما ما يرويه الأوروبيون عن أن هذا الطقس يمكن أن يصبح خطيراً تحت ظروف معينة فهو إشاعة خاطئة. ويسمح للغرباء، وأيضاً لغير المسلمين، بمشاهدة طقوس التعزية لا بل إنهم يدعون بكل لطف لحضورها. ولا تتطور شعائر محرم إلى أعمال عنف إلا عندما يُستفز الشيعة من مشاغبين سنيين أو هندوسيين.

تقتصر الشعائر الدامية عادة على الأيام الثلاثة الأخيرة من العقد الأول من محرم. وهي امتياز للشباب والجمعيات والمنظمات الدينية التي تؤدي هكذا شعائر التكفير عن الذنب ـ بالنيابة عن الأمة الشيعية ـ وتكتسب بذلك الأجر والثواب. إلى جانب الرجال الذين يضربون أنفسهم بالسلاسل (باللغة الفارسية: زنجيرزان) هناك أيضاً الرجال الذين يضربون جباههم حتى الإدماء بالسيوف والخناجر (باللغة الفارسية: تيغزان). وهم يرتدون في أثناء ذلك أكفاناً بيضاء تعبيراً عن

استعدادهم للشهادة. ويشارك غالباً في شعائر الجلد فتيان صغار ولكن تحت رقابة صارمة. إذ إن غالبية شهداء كربلاء كانوا من الأطفال والأحداث. أما شعائر الضرب الذاتي حتى الإدماء لدى النساء فهي نادرة جداً وتعتبر غير مسموحة. كما أن رجال الدين أيضاً لا يجلدون أنفسهم. فالشعائر التي يصل فيها المرء إلى أقصى درجات النشوة ونسيان الذات غريبة عن عالم القانون والشريعة. إذ إن الشريعة تعتبر التلطخ بالدم نجساً.

ولذلك يرى بعض رجال الدين أن التلطخ بالدم كطقس ديني شذوذ غير جائز. ويروي بينولت كيف كان ابن آية الله العظمى العراقي آية الله أبو القاسم الخوئي، الذي كان قد جاء إلى الهند كي يجبي الزكاة من الطائفة الشيعية، يعود مسرعاً إلى البيت بعد كل حضور لحفلة من حفلات عاشوراء كي يطهر نفسه بالوضوء من التلطخ بدم المشاركين في جلد الذات. وقد صدرت عن رجال الدين الشيعة فتاوى كثيرة تعتبر جلد الذات أمراً غير جائز، أي «بدعة» لا أساس لها في الدين. إلا أن كثيراً من رجال الدين نشأوا منذ طفولتهم ضمن هذه التقاليد التي تمارسها طائفتهم منذ مئات السنين ولذلك يرون في الشعائر الدامية أمراً عادياً تماماً لا بل فعلاً يستحق الأجر والثواب.

أما في إيران الحالية فإن الجلد الذاتي حتى الإدماء ـ وكذلك مآتم التعزية ـ غير ممنوع صراحة ولكنه يعتبر مكروهاً ولا يسمح به إلا بالسكوت عنه على مضض. إذ إن نظام الحكم الثوري يفضل توجيه الحماس الديني نحو تحقيق أغراضه الخاصة. ففي المسيرات

الجماهيرية يجلد المشاركون ظهورهم (غير العارية) بصورة رمزية فقط بأسواط مؤلفة من سلاسل صغيرة.

في شعائر جلد الذات يرتبط التكفير عن الذنب والاستعداد لتحمل الألم ارتباطاً وثيقاً مع بعضهما البعض. وهما يشكلان النواة الحقيقية للتديّن الشيعي. فالشيعي الخاطىء يستحق الموت؛ والموت وحده قادر على تحريره من خطيئته. ففي الجلد تتحول التضحية بالذات المستحقة إلى طقس وبالتالي تصبح قابلة للتكرار ـ أي غير مميتة. فالمؤمن لا يبرهن فقط على استعداده لسفك دمه والتضحية بحياته فحسب بل يسفك فعلاً جزءاً من دمه. وبذلك يكفّر عن جزء من ذنوبه ويكتسب الحق في العيش سنة أخرى ـ حتى عاشوراء القادمة.

الفصل الثالث

إسلام الملالي

النيابة عن الإمام الغائب

حسب الرأي الشيعي فإن الرئيس الشرعي (أو الإمام) للأمة الإسلامية ـ أي لجميع المسلمين في العالم ـ هو الإمام الثاني عشر محمد المهدي الذي خبأه أبوه لكي يحميه من بطش السلطة الدنيوية أي الخليفة في بغداد. ومنذ وفاة الإمام الحادي عشر في ديسمبر/ كانون الأول 873م أو في يناير/ كانون الثاني 874م لم يعد للإسلام ـ حسب وجهة النظر الشيعية ـ رئيس ظاهر يتمتع بحق شرعي في أن يكون خليفة النبي محمد. صحيح أن الإمام الغائب ظل، حسب الرواية الشيعية، حتى سنة 941 يتصل بأتباعه عن طريق وسطاء يسمون «السفراء» لكنه انسحب بعد ذلك من الحياة الظاهرة ودخل في ما يسمى «الغيبة الكبرى». فقد تبين أن مؤسسة «السفراء» غير عملية على المدى الدائم ولذلك تم التخلي عنها. ولذلك تعين على الشيعة أن يطوروا نماذج أخرى لكي ينظموا القيادة الروحية لطائفتهم ويرسخوا شخصية، أو هيئة، تتمتع بسلطة ملزمة. وتاريخ الشيعة بكامله هو تاريخ هذه المحاولات. فهي لم تزل مستمرة حتى اليوم كما نرى في الأحداث الجارية في إيران.

حسب النظرية الشيعية فإن الإمام الغائب هو، بصفته خليفة النبي والضمان الوحيد للنظام الأرضي الذي يريده الله، الحاكم الشرعي الوحيد على الأرض. وكل شخصية أو سلطة غير موفرة منه تعتبر تطاولاً غير مشروع. ولكن وبما أن الإمام الغائب، حسب وجهة نظر الشيعة أيضاً، لم يعيّن نائباً له لا بل إنه وصف في رسالته الوداعية كل من يتصرف باسمه في المستقبل بأنه مخادع، فإن أي ممارسة للسلطة هي، بالنسبة للشيعة، من حيث المبدأ، استبداد وكل سلطة هي اغتصاب. هذا الموقف الصارم من السلطة الحاكمة يجد تفسيراً له من وضع الشيعة في الحقبة الأولى من العصر الوسيط. إذ إن الخلفاء العباسيين في بغداد (749 ـ 1258م/ 145 ـ 656 هـ) كانوا سنيين. وكان الشيعة يعتبرونهم معادين للمؤمنين الحقيقيين وقتلة الأئمة الشهداء. في ذلك الوقت كان الشيعة أقلية معارضة لا أمل لها في أن تستولي على السلطة السياسية. وهكذا كان في وسعها التنصل بكل سهولة من أي حكم. ولكن في الوقت نفسه لم يكن الشيعة سيستطيعون البقاء كفرقة دينية ما لم يطوروا هياكل تنظيمية للطائفة ويعترفوا بهيئات أو شخصيات تتمتع بحق ممارسة السلطة. غير أن هذا كان على الدوام غير ممكن إلا مع الأخذ بعين الاعتبار أن جميع السلطة الشرعية كانت مجمعة في يد الإمام ـ مسألة في غاية الصعوبة طالما أن الإمام نفسه لم يفوض أحداً بممارسة السلطة نيابة عنه.

بصفته الرئيس الوحيد للأمة كان، حسب النظرية، للإمام وحده الحق في ممارسة بعض الوظائف المعينة (أو في تكليف شخص ما لأدائها). وينطبق هذا على جميع الوظائف التي كان النبي محمد يقوم بها بنفسه في المجتمع الإسلامي الأول في المدينة: كان النبي يؤم

المسلمين في صلاة الجماعة ويلقي الخطبة الدينية؛ وكان يقود المسلمين في الجهاد، أي في الحملات الحربية ضد أعداء الإسلام من المكيين المشركين، ويتوسط كل الخلافات ويحكم فيها، ويفرض العقوبات ويأمر بتنفيذها؛ وكان يجمع الزكاة التي يتعين على أبناء الأمة الإسلامية إيتاءها لمساندة الفقراء والضعفاء. وكان يتولى كقائد عام للجماعة مهام دينية وسياسية في وقت واحد. فيرسل الرسل ويستقبلهم. ويعقد الاتفاقيات مع القوى الأجنبية. وعند غياب الخليفة الشرعي الوحيد للنبي محمد، وهو الإمام الثاني عشر، لم تصبح هذه الوظائف شاغرة بالمعنى الكامل للكلمة ـ ذلك أن الإمام يعيش في مكان ما على الأرض وهو لم يتنازل بأي حال عن صلاحياته ـ لكن ممارستها توقفت لفترة زمنية غير معلومة حتى العودة المرتقبة للإمام.

صحيح أن الشيعة كان في وسعهم الاستغناء عن بعض هذه الوظائف لأنهم كانوا مبعدين عن جميع المهام السياسية. فلم يكونوا في وضع يضطرون معه لقيادة الدولة أو لشن الحروب، كما أن القضاء لم يكن في يدهم. ولكن كيف كان الوضع مع الوظائف الدينية في غياب الإمام، مع الصلاة وخطبة الجمعة؟ ومع الزكاة؟ فهل توقف واجب دفع الزكاة أو الخمس حتى عودة الإمام؟ ومن كان في هذه الحالة يرعى الأرامل واليتامى؟

كانت قضية الصلاة خمس مرات كل يوم من أبسط القضايا. فهي مكتوبة في القرآن ومفروضة كواجب شخصي على كل مسلم يمكن القيام به دون إمام أيضاً. ولذلك كان من العبث التفكير بأن غياب الإمام يمكن أن يعفي المسلمين من أداء هذا الواجب الديني

الأساسي. أما فيما يتعلق بخطبة الجمعة وبجمع الزكاة فقد كانت المشكلة أكثر صعوبة. فقد كان يتعين تكليف شخص ما بأداء هاتين المهمتين. ولكن من هذا الشخص الذي سيكلف، ومن هو الشخص الذي له الحق في إعطاء التكليف؟ من خلال مناقشة هذه المسائل والبحث عن حلول لها نشأت الطبقة العالمة في قضايا الدين والشرع وهي طبقة «العلماء». وهي طبقة لا تقتصر على الشيعة وحدهم بل إن السنة أيضاً لديهم نفس الطبقة وبنفس الاسم وبطريقة مشابهة من ناحية التأهيل والهيئة. أي أن العلماء ظاهرة إسلامية عامة وإن كانت طبقتهم قد اتخذت عند الشيعة طابعاً نوعياً معيناً. وهم يسمون في إيران «ملّا»، وهي كلمة محورة عن الكلمة العربية «مولى»[1] أي «السيد» أو «المعلم» وتمثل صيغة للمخاطبة تشبه صيغة «صاحب الغبطة» عند المسيحيين أو «الحاخام» عند اليهود.

العلماء أشخاص متخصصون في شؤون الدين والشرع. وكانوا في الأصل أناساً عاديين لديهم اهتمام بالقضايا الدينية يجمعون أقوال النبي وأحاديثه وأحاديث الأئمة ويدققونها ويشرحونها. وحاولوا أن يستخلصوا من هذه الأحاديث تعليمات محددة للسلوك والتصرف في الحياة اليومية وكان خلفاء النبي، أي الأئمة، يعدّون مثله مسلمين مثاليين يتصفون بالكمال والعصمة. فكل خبر عنهم، وكل قول نطقوا به، وكل سلوك قاموا به، يعدّ مثالاً يحتذى ويعدّ الاقتداء به واجباً ملزماً. وعن العمل في مجال جمع الحديث نشأت العلوم الإسلامية

(1) أصل الكلمة مولى اشتق من القول: «**من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**» وقد استعملت كلمة مولىٰ وهي مشتقة من كلمة مولاه وليس من الموالي [الناشر].

التي يستند إليها الشرع الإسلامي. ومع مرور الزمن تحول العلماء الخاصون إلى قانونيين حقيقيين. وليس للعلماء لدى الشيعة ولا لدى السنة طابع القساوسة المسيحيين. فهم لا يوزعون القربان بل يؤدون نفس الشعائر الدينية مثل جميع المسلمين الآخرين. لكنهم «خبراء» (باللغة العربية: فقهاء، المفرد فقيه) في جميع المجالات ذات الصلة بالإسلام. فكلمة «علماء» تعني هنا خبراء في شؤون الدين.

لم يقتصر النقاش الذي دار بين علماء الشيعة على النيابة عن الإمام الغائب بل استولوا مع مرور الزمن ـ بعد نقاشات وخلافات استمرت مئات السنين ـ على مهامه واحدة بعد الأخرى. ولم تزل هذه العملية جارية حتى اليوم وتشكل الثورة الإسلامية في إيران التي أدت إلى تولي العلماء ـ أو الملالي ـ إدارة الدولة والحكم الذروة المؤقتة لهذا التطور الذي بدأ بالغياب النهائي للإمام، أي بالغيبة الكبرى، في سنة 941م.

حق الإمام: الخمس

يفرض القرآن على المسلمين دفع جزء من أموالهم تضامناً مع الفقراء والمحتاجين من أبناء الأمة يسمى «الزكاة» (على سبيل المثال: سورة الحديد، الآية 18؛ وسورة المجادلة، الآية: 13). إلى جانب الزكاة يذكر القرآن ضريبة أخرى تسمى «الخمس». فقد جاء في سورة الأنفال، الآية 41 قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ... ﴿٤١﴾﴾. ولفعل «غنم» المستعمل هنا، في اللغة العربية، معنيان: فهو يعني «كسب»، «ربح»، لكنه يعني أيضاً «اغتنم» أي أخذ

من المحاربين عنوة. يفسر علماء السنة الفعل بالمعنى الثاني ويطبقون الآية فقط لتعليل فرض ضريبة على غنائم الحرب. أما علماء الشيعة فيفهمون كلمة غنم بمعنى «كسب» أي بالمعنى الواسع للكلمة ويعتبرون «الخمس» منذ قديم الزمان نوعاً من ضريبة الدخل. وهذا يعني أن الشيعي يتعين عليه من حيث المبدأ دفع عشرين بالمائة من أرباحه، سواء أكانت من حرفة أو تجارة. ولكن لمن؟ صحيح أن القرآن يقدم الجواب ولكن كيف يدفع المرء للّه ولرسوله الذي توفي منذ زمن طويل؟ ومن هم «ذو القربى»؟

الإجابة على مثل هذه الأسئلة هي من اختصاص العلماء. فتفسيرهم لموضوع «الخمس» يعد نموذجاً للطريقة التي يحاججون بها. فهم يأخذون الفئات الست المذكورة في القرآن، أي الفئات التي يوزع عليها الخمس، بالمعنى الحرفي للكلمة. وهذا يعني أن كل فئة لها سدس الخمس. ثم يجمعون الفئات الثلاث الأولى، الله ورسوله وذي القربى أي الأئمة، معاً. وبناء على ذلك يكون ثلاثة أسداس الخمس من نصيب الإمام بصفته الخليفة الشرعي لرسول الله ورئيس عائلة النبي. هذه الحصة من الخمس تسمى «حصة الإمام» أو «سهم الإمام». أما الفئات الثلاث الباقية ـ اليتامى والمساكين وابن السبيل ـ فلا يفهمونها بالمعنى العام، أي بمعنى الفئات المحتاجة من الأمة، لأن هذه الفئات تحصل على حصتها من الزكاة، وإنما بمعنى يتامى ومساكين وأبناء سبيل أسرة النبي، أي الأسياد (السادة) ولذلك فإن ثلاثة أسداس الخمس مخصصة لأقرباء النبي، أي لجميع أفراد الأسرة الهاشمية، لجميع الهاشميين بحيث يحصل كل منهم على

حصة تتناسب مع مرتبته. وتسمى هذه الحصة «حصة الأسياد» («سهم السادة»، المفرد سيّد).

ولكن من يجمع الخمس ويعمل على توزيعه بالطريقة التي يريدها الله؟ وماذا يحصل مع «سهم الإمام» طالما بقي غائباً؟ لم تنشأ هذه المشكلة إلا بعدما خاب التوقع الأصلي بالعودة القريبة للإمام الغائب. في وقت مبكر من تاريخ الشيعة كان هناك رأي يقول بأن كل مؤمن يجب عليه الاحتفاظ بالخمس في بيته أو دفنه تحت الأرض حتى يعود الإمام. وكان هناك رأي آخر يقول بأنه لا حاجة لدفع الخمس طالما بقي الإمام غائباً. لكن الرأي الذي فرض نفسه في نهاية المطاف لدى العلماء نص على أن العلماء أنفسهم هم الوكلاء المناسبون لإدارة ثروة الإمام الغائب. وهذا يعني أن دفع الخمس إلزامي خلال فترة غياب الإمام أيضاً. إذ يتولى العلماء جبايته بجزأيه، أي «سهم السادة» و«سهم الإمام» على حدٍّ سواء، فيوزعون الجزء الأول ثم ينفقون «سهم الإمام» بالطريقة التي ترضي الإمام الغائب أي بما فيه مصلحة الإسلام والأمة. يجب أن نتذكر دوماً أن الشيعة كانوا في الأصل أقلية معارضة ولم يكونوا يمارسون أية سلطة حكومية. وهذا يعني أن جباية الخمس وإنفاقه كانا قضية داخلية خاصة بالطائفة الشيعية وليس مهمة من مهام الدولة. ولم يزل الأمر كذلك، من ناحية المبدأ، حتى اليوم. مع تولي العلماء المسؤولية عن جباية الخمس وتوزيع نصفه على الهاشميين وإدارة النصف الآخر ـ حصة الإمام الغائب ـ بالوكالة كهيئة ائتمان، أصبحوا يتصرفون بمبالغ كبيرة من المال. وفي وقت لاحق أضيف إلى ذلك موارد أُخرى. فكانوا ينفقون معظم هذه الأموال على القضايا الدينية وعلى

المؤسسات التعليمية والجمعيات الخيرية. ويعتبر التلاعب بها أو اختلاسها من الخطايا الكبرى في حق الإمام. كثير من الملالي يعيشون شخصياً حياة التقشف والزهد. مع ذلك نجد في إيران ـ كما في البلدان المسيحية ـ كثيراً من الدعاوى والانتقادات ضد «جشع» رجال الدين.

كون الخمس ضريبة طوعية فهو بمثابة الدين المستحق على المؤمن. أما طريقة سداد هذا الدين فهي شديدة التنوع. يستطيع الفرد دفعه لأي رجل دين يختاره وليكن شيخ القرية مثلاً. لكن شيخ القرية يكون بدوره مرتبطاً، في العادة، بعلاقة تبعية مع أحد آيات الله الكبار فيدفع له جزءاً من المبلغ. ويستطيع عادة الاحتفاظ بثلث المبلغ لإنفاقه على ما يخدم مصلحة قريته. لكن سكان القرية أو الحي أو الأعضاء في إحدى جمعيات عاشوراء الدينية يمكنهم إرسال الأموال مع وفد يمثلهم إلى أحد آيات الله من اختيارهم ثم يطلبون من آية الله إعادة جزء منها لهم. أما مقدار المبلغ المعاد فيتم الاتفاق عليه غالباً مع وكيل آية الله.

المشاركة في الحكم (القرنان العاشر والحادي عشر)

طالما كانت الطائفة الشيعية في العراق وفي غرب إيران تقف في المعارضة تجاه الخلافة السنية في بغداد كان في وسعها رفض كل شكل من أشكال السلطة والاكتفاء بالأمل في العودة القريبة للإمام الغائب. لكن هذا الوضع تغير عندما أصبح الحكام أنفسهم في القرن العاشر ولأول مرة من الشيعة. هذا الوضع الجديد أجبر علماء الشيعة على إعادة النظر في علاقتهم مع سلطة الدولة. في ذلك الوقت كانت

الخلافة العباسية قد أصبحت ضعيفة إلى أبعد الحدود. وكانت السلطة الفعلية في بغداد في يد قادة الجيوش، عسكريين من أصل عربي أو تركي أو فارسي، الذين كانوا يتصارعون على السلطة وينصبون الخلفاء ويعزلونهم متى شاؤوا. من سنة 945م حتى سنة 1055م كان منصب قيادة الجيش في يد البويهيين وهم أسرة فارسية تنحدر من الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين وكان لديها منذ البداية ميول شيعية. وكان البويهيون قد عملوا كجنود مرتزقة وكقادة لهؤلاء الجنود وأسسوا في غرب إيران إمارات حقيقية. وفي سنة 945م استولى أحد أفراد الأسرة على السلطة في بغداد أيضاً. وعلى الرغم من أن البويهيين كانوا يجاهرون بعقيدتهم الشيعية فإنهم لم يمسوا الخلافة السنية في بغداد؛ فقد كانوا بحاجة إلى الخليفة لإعطاء الشرعية لحكمهم. غير أنهم دعموا الطائفة الشيعية وزودوا قبور الأئمة بالمباني والهدايا والمبرات الخيرية، ووضعوا الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف، والتي كان البدو قد نهبوها مراراً وتكراراً، تحت حمايتهم. وفي المدن المجاورة لبغداد حيث كان السكان الشيعة يشكلون الأكثرية سمح بإقامة الاحتفالات في الأعياد الشيعية؛ في ذكرى غدير خم حيث عيّن النبي محمد، حسب الرواية الشيعية، ابن عمّه وصهره علياً خليفة له، وفي ذكرى مجزرة كربلاء (انظر الصفحة 28 أعلاه). وبما أن مسيرات عاشوراء كان يتخللها شتائم ضد القتلة السّنيين كانت تحدث في كثير من الأحيان صدامات مع السُّنة الذين كانوا يشعرون بالاستفزاز. في سنة 1973م حدثت اضطرابات في الحي الشيعي الكرخ واندلع حريق كبير راح ضحيته آلاف الناس. ولذلك اضطرت الحكومة إلى منع المسيرات الشيعية فترة من الزمن. وقد تطورت

الأمور إلى درجة أن السُّنة قاموا في سنة 1051م بتدمير ضريحي الإمامين السابع والتاسع في حي الكاظمين (الكاظمية حالياً) الواقع في شمال بغداد وبتخريب قبور الحكام البويهيين المدفونين هناك.

تحت حماية البويهيين ازدهرت الطوائف الشيعية في العراق وفي غرب إيران واكتسبت مزيداً من الثقة بالنفس إلى درجة أن القرن العاشر سمي «قرن الشيعة». فقد كان الشيعة يتمتعون بأعلى الامتيازات في البلاط البويهي في بغداد ويكلفون بوظائف هامة. لا بل إن الشريف الرضي (توفي سنة 1015م/ 400 هـ) المتحدر من نسل علي والأئمة كان يشغل منصب نائب الخليفة السني بصفته القاضي الأعلى الذي ينظر في شكاوى المواطنين ضد تجاوزات السلطة. ويعود له الفضل في جمع جميع خطب ورسائل ومواعظ الإمام علي في كتاب بعنوان «نهج البلاغة» وهو كتاب لم يزل حتى اليوم ينال إعجاب السنة أيضاً كنموذج للنثر العربي الكلاسيكي. وكان أخوه الشريف المرتضى (توفي سنة 1044م/ 436 هـ) فقيهاً شيعياً محترماً جداً ومقرباً من البلاط.

لكن تقرب شخصيات شيعية بارزة من الخلفاء العباسيين المتهمين بقتل الأئمة حالة فيها بعض الغرابة. ولذلك ليس مستغرباً أن هناك العديد من الأبحاث التي أُلفت في ذلك الزمن والتي تحمل العنوان «مشكلة العمل مع الحكومة» أو عناوين مشابهة. وقد كتب الشريف المرتضى نفسه بحثاً بهذا العنوان برر فيه قربه من البلاط. ومن الواضح أن مجرد الشعور بضرورة إيجاد مبررات لهذا السلوك إنما هو دليل على حجم الإشكالية التي كانت تواجه الشيعة عند مشاركتهم في سلطة سياسية لا تستمد شرعيتها من الإمام الغائب.

لكن قبول منصب تحت قيادة حاكم غير شرعي، لا بل وكافر، له العديد من السوابق المعروفة: فقد جاء في القرآن (سورة يوسف، الآية: 55) ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أن النبي يوسف لم يأنف عن أن يطالب فرعون بأن يجعله أميناً على خزائن الحبوب في مصر، والإمام علي كان عضواً في الهيئة التي انتخبت الخليفة الثالث المكروه عثمان بن عفان. بأمثلة كهذه برَّر المرتضى المشاركة في الحكم ولكن على شرط ألا يخالف الشيعي في منصبه أسس عقيدته الشيعية؛ يجب عليه أن يتصرف دوماً كوكيل ضمني للإمام الغائب ويعمل بكل قواه على حماية الشيعة ودعمهم.

أسس الشرع (الفقه) الشيعي: «الكتب الأربعة»

يعدّ العصر البويهي عصر تأسيس المذهب الشيعي ويشبه عصر «آباء الكنيسة» في أوروبا. ففي القرنين العاشر والحادي عشر نشأت المؤلفات الأساسية للفقه الشيعي الاثني عشري. وتستند هذه المؤلفات إلى أقوال الأئمة التي تقابل «السُّنة»، أي أحاديث النبي، عند السنيين.

فبما أن الأئمة هم الخلفاء الشرعيون للنبي ويستمدون إلهامهم من الله فإن أحكامهم وقراراتهم وتعليماتهم تشكل وحدة واحدة مع احكام وقرارات وتعليمات النبي. وهذا يعني أن الشيعة لهم «سنة» خاصة بهم.

أقدم جمع لأقوال النبي والأئمة كتاب «الكافي» الذي لم يزل يستعمل حتى اليوم وهو يحتوي على جميع أقوال الأئمة التي كانت معروفة آنذاك مصنفة لتسهيل الاستعمال في أجزاء حسب الموضوع:

يعالج الجزء الأول المسائل العقائدية وقضية الإمامة، ويعالج الجزء الثاني قضية الإيمان والكفر، ويعالج الجزء الثالث قضية الطهارة، والدفن، والصلاة والزكاة ويعالج الجزء الرابع الصيام والحج والخ. . . مؤلف كتاب الكافي، الذي يتألف في طبعة حديثة من ثمانية أجزاء، المحدث الإيراني محمد بن يعقوب الكُلَيني الذي عمل في قم وتوفي سنة 940م أو 941م في بغداد. والكافي هو الكتاب الأول من «الكتب الأربعة» التي يرتكز عليها البنيان الفكري الكامل للشيعة الاثني عشرية. أما الكتب الثلاثة الأخرى فهي بقلم العالم ابن بابويه القمّي، المولود في قم والذي علّم في بغداد وتوفي سنة 991م في ري قرب طهران، وبقلم الشيخ الطوسي (توفي سنة 1067م).

بينما هيأ كتاب الكافي، الذي كان الجمع الأول لأقوال الأئمة، المادة الأساسية اللازمة للبحث، كتب بقية العلماء من قم وبغداد ثم تلاميذهم من بعدهم العديد من المؤلفات التي وضعوا فيها مبادىء الاستنباط الشرعي أو «أصول الفقه» التي يمكن بواسطتها استنباط القرارات المتعلقة بالزمن الحاضر من المادة الأساسية المؤلفة من أقوال وأحاديث الأئمة، ولم يتركز اهتمامهم في هذا الصدد على صياغة حلول جاهزة لجميع الحالات الحاضرة والتي يمكن أن تظهر في المستقبل، وإنما على وضع الأسس والقواعد الإجرائية التي تجعل الأجيال الحالية والقادمة من العلماء قادرة على الإجابة بصورة مستقلة عن المسائل التي ستظهر في المستقبل، سواء أكانت ذات طابع ديني أو ذات طابع قانوني شرعي. وبينما يحاول السُّنة الإجابة على جميع المسائل التي لم تسوّ بموجب النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية بواسطة «القياس»، أي بالمقارنة مع حالات سابقة

مشابهة، أو بالاستناد إلى «إجماع» العلماء (السنة)، فإن الشيعة يعتمدون على العقل. فعلماء الدين الشيعة الاثنا عشرية عقلانيون بمعنى أنهم يثقون بقدرة العقل البشري على معرفة القضايا الدينية أيضاً، بينما يغلب لدى السّنيين الشك تجاه قدرات العقل. ويقوم أساس العقلانية الشيعية على الاقتناع المتفائل بأن الله قد أعطى الإنسان العقل لكي يستعمله لمعرفة ما يريده الله. أي أن الوحي والعقل لا يتعارضان بأي حال بل هما وجهان لا ينفصلان لعملة واحدة.

كان علماء «المدرسة البغدادية» المذكورون أعلاه هم الذين تبنوا لأول مرة المساواة بين «النقل» و«العقل». لكن هذا المبدأ كان موضع خلاف. وقد شغل فيما بعد الطوائف الشيعة أيضاً وأدى إلى شقها بين حين وآخر. أما اليوم فإن الغالبية العظمى من الملالي وآيات الله يتبعون المدرسة العقلانية؛ فهم عقلانيون ويمثلون بالتالي النقيض التام «للأصوليين» لأنهم لا يعتمدون على النص الحرفي وحده لما جاء في أحاديث الأئمة بل يضمنون لأنفسهم عن طريق استخدام العقل مجالاً أوسع لاتخاذ القرارات. ولكن إلى جانب هذا التيار العقلاني، الذي فرض نفسه في نهاية المطاف على نطاق واسع، كان هناك على الدوام تيار «أصولي» بالمعنى الأصلي لهذا التعبير الديني. . بالنسبة لأتباع هذا الاتجاه لا يجوز الاعتماد إلا على ما جاء في القرآن وفي الأحاديث النبوية وأقوال الأئمة.

المركز الجديد: الحلّة (القرنان الثالث عشر والرابع عشر)

خلال الحكم البويهي (945م ـ 1055م) كانت بغداد وقم

المركزين الروحيين للشيعة. ولم يطرأ أي تغيير على ذلك في القرن الحادي عشر. غير أن الشيعة تعين عليهم بعد سقوط هذه الأسرة الحاكمة التعامل مع ظروف سياسية مختلفة كلياً. فقد بدأت قرون الغزوات التي شنتها شعوب آسيا الوسطى، في بادىء الأمر الشعوب التركمانية وبعد ذلك المغول الذين أخضعوا إيران لحكمهم. وظلت إيران حتى القرن العشرين تحكم غالباً من أسر غير إيرانية ذات أصول بدوية، ابتداء بالسلاجقة الأتراك سنة 1038 وانتهاء بالقاجار التركمان (حتى سنة 1925). في سنة 1055م دخل الأتراك إلى بغداد ووضعوا الخليفة تحت «حمايتهم» وأنهوا فترة الحكم البويهي. كان السلاطين السلاجقة سنيين متحمسين، فتوقف في عهدهم دعم الشيعة. صحيح أن الطوائف الشيعية في العراق وفي مدن غرب إيران ظلت موجودة لكنها تراجعت مرة أخرى وانطوت على نفسها.

إلا أن وضع الشيعة طرأ عليه تغير حاسم في القرن الثالث عشر: فقد أنهى الغزو المغولي بقيادة خلفاء جنكيز خان الخلافة في بغداد؛ في سنة 1258م/ 656 هـ أمر القائد المغولي هولاكو، حفيد جنكيز خان وأخو الخان الكبير قبلاي، بعد استيلائه على بغداد بخنق آخر خليفة عباسي. فأعرب الشيعة عن ابتهاجهم بنهاية الأسرة الحاكمة المكروهة!!!

غير أن مراكزهم الرئيسية أصيبت أيضاً بأضرار جسيمة نتيجة الغزو المغولي: فقد تم تدمير قم سنة 1224م وظلت خلال القرن الرابع عشر بكامله تحت الأنقاض. وانحدرت بغداد بعد سنة 1258م إلى مرتبة المدينة الثانية. كما أن الحي الشيعي، الكرخ، تعرض

للنهب على يد المغول الذين دمروا أيضاً ضريحي الإمامين في الكاظمين.

نشأ مركز جديد للشيعة في المدينة الصغيرة الحلّة الواقعة على أحد فروع الفرات إلى الجنوب من مدينة بابل الأثرية. فعندما جاء المغول إلى الحلة تعاون معهم سكانها طواعية: بنوا للمغول جسراً على نهر الفرات وحصلوا بذلك على ضمان بالمحافظة على ضريح الإمام علي القريب من هناك في النجف. صحيح أن أمل الشيعة في أن الحكام المغول الجدد، الذين كانوا لم يزالوا وثنيين، يمكن أن يعتنقوا الإسلام الشيعي لم يتحقق، لكن الشيعة استعادوا تحت الحكم المغولي كثيراً من حريتهم. فأصبحت الحلة الصغيرة مركزاً جديداً للعلوم الشيعية. فاستند العلماء هنا إلى التقاليد العقلانية للمدرسة البغدادية وأسندوا للعقل مجدداً دور المبدأ الهام في الاستنباط الفقهي. فقد وضعت «مدرسة الحلة» في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الأسس النظرية التي ترتكز عليها اليوم سلطة الملالي وآيات الله في إيران والعراق.

مبدأ الاجتهاد: القاعدة التي تقوم عليها سلطة الملالي

لم يزل حتى اليوم النفوذ الذي يمارسه رجال الدين الشيعة على المجتمع والسياسة أحجية تثير الاستغراب لدى كثير من المراقبين الغربيين؛ وكان استيلاؤهم على السلطة في إيران سنة 1979 مفاجأة كبيرة لكثير من السياسيين والصحفيين. إذ كانت الواجهة البراقة لنظام حكم الشاه قد حجبت النظر عن الواقع الاجتماعي الحقيقي في

إيران. . فما ظهر على السطح فجأة ودون مقدمات لم يكن جديداً بأي حال.

صحيح أن «طبقة رجال الدين» الشيعة في إيران ـ سنعلل فيما بعد استعمالنا لهذا التعبير ـ لم تنشأ حتى القرن السادس عشر لكن أسس سلطتها الدينية تمتد بعيداً جداً إلى الوراء، إلى العهد المغولي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. سنقدم هنا واحداً فقط من فقهاء الشيعة آنذاك وهو المفكر الأكثر نفوذاً في مدرسة الحلة. اسمه الحقيقي الحسن بن يوسف بن علي يجهله كثير من الشيعة أيضاً لكن كل شيعي يعرفه تحت اسمه الفخري «العلامة الحلّي». وتجدر الإشارة إلى أنه كان العالم الأول الذي حصل على لقب «آية الله» ـ كان هذا اللقب آنذاك مجرد لقب فخري ولم يكن يعبر عن مرتبة معينة داخل تسلسل هرمي طويل. ولد العلامة الحلي سنة 1250م، قبل وقت قصير من الغزو المغولي، وتعلم في بادىء الأمر في الحلة على يدي أبيه وعمه. لكنه ذهب فيما بعد إلى بلاط الخان المغولي أولدشيتو في تبريز في آذربيجان. لا بل إنه نجح في جعل الخان، الذي كان يثق به كثيراً، يعتنق المذهب الشيعي. وقد قام الخان بصك أسماء الأئمة الاثني عشر على عملته المعدنية. لكن هذا اقتصر على فصل زمني قصير، إذ إن حكام إيران المغول اللاحقين عادوا إلى المذهب السُّني. توفي العلامة سنة 1325م ودفن في مشهد قرب ضريح الإمام الثامن ولم يزل ضريحه حتى اليوم مزاراً مقدساً.

أهم إنجاز نظري للعلامة الحلي تعليل مبدأ الاجتهاد، أي استنباط الرأي الشرعي بصورة مستقلة استناداً إلى المحاكمة العقلية.

فعلى هذا المبدأ يرتكز نفوذ الملالي وآيات الله. إذ إن نقطة انطلاق جميع التأملات النظرية هي السؤال عن كيفية حل المشاكل ذات الطبيعة الدينية الحقوقية إذا لم تكن محلولة بشكل حاسم بموجب نص قرآني أو حديث للأئمة (من الأمثلة الحديثة على ذلك قضية تحديد النسل التي سنعالجها لاحقاً) لنتذكر أن الشيعة يعترفون بعصمة أربعة عشر شخصاً فقط هم النبي محمد وابنته فاطمة والأئمة الاثنا عشر. ثلاثة عشر شخصاً منهم متوفون وواحد غائب لا يستطيع أحد مقابلته أو الوصول إليه، أي أن جميع الناس الآخرين معرضون للوقوع في الخطأ. فلا أحد يستطيع ادعاء العصمة لنفسه. كيف ستتصرف إذاً إذا ما اعترضتنا مشكلة لا يمكن حلها بالعودة إلى النصوص القرآنية أو الأحاديث النبوية أو أحاديث الأئمة (وهي محدودة الكم)؟ هنا يتدخل العقل البشري مستعملاً حقه: إن الله قد أعطى الإنسان العقل لكي يستعمله لمعرفة ما يريده الله. فإذا لم تقدم النصوص (النقل) الحل يجب الاستعانة بالعقل. غير أن الحل الذي يتم التوصل إليه معرض ـ شأنه شأن أي حكم بشري ـ للخطأ وهو بالتالي قابل للتعديل في أي وقت.

هذا السعي العقلاني إلى إيجاد حلول للمشاكل يسمى في اللغة العربية «اجتهاد» وهي كلمة تعني «بذل الجهد». وهي ذات صلة بالتعبير المعروف «الجهاد» (أي بذل الجهد محاماة عن الدين). واسم الفاعل من كلمة اجتهاد «مجتهد» أي الشخص الذي يبذل الجهد لاستنباط الأحكام. وهكذا فإن النفوذ الذي يتمتع به آيات الله الحاليون يستند إلى كونهم «مجتهدين».

فمن هو المجتهد؟ وكيف يحدث الاجتهاد؟ كتب العلامة الحلي كتاباً بعنوان «المنطلقات التي يصل منها المرء إلى علم المبادىء» وضع فيه لأول مرة نظرية الاجتهاد. في بادىء الأمر رسم صورة للعالم الذي لديه التأهيل اللازم والمعارف والكفاءات التي لا غنى عنها. يجب عليه قبل كل شيء أن يجيد اللغة العربية إجادة تامة بكل تفاصيلها ودقائقها. ولم يزل هذا حتى اليوم شرطاً أساسياً لجميع طلاب الشريعة الإسلامية في جامعات قم ومشهد والنجف وكربلاء فما زال علماء الشيعة في جميع أرجاء العالم يتفاهمون باللغة العربية كما كان رجال الدين المسيحيون حتى القرن التاسع عشر يستعملون اللغة اللاتينية. بعد ذلك يجب أن يكون المجتهد عارفاً بما جاء في القرآن. ليس من الضروري أن يحفظه عن ظهر قلب كما هو الحال لدى كثير من المسلمين، بل يكفي أن يكون لديه رصيد جيد من الآيات لا يقل عن 500 آية تقريباً. بالإضافة إلى ذلك يجب أن يكون خبيراً بالأحاديث النبوية وأحاديث الأئمة ويحسن التعامل معها. ومن الطبيعي أنه يجب أن يعرف مبادىء الفقه ويجيد استعمال أدوات المنطق لكي تكون استنتاجاته محكمة؛ فالعقلانية والمنطق لا ينفصلان.

يتضح من ذلك أن المرء لا يكتسب الأهلية للاجتهاد عن طريق الإيحاء أو الوحي أو القدسية وإنما عن طريق العلم والمعرفة. ولا يصبح المرء مجتهداً إلا بعد دراسة مكثفة طويلة الأمد. وليس كل شخص قادراً على أن يكون مجتهداً. فالغالبية العظمى من الشيعة محرومة من الاجتهاد فالعوام وغير المختصين لا يحق لهم الاجتهاد. لا بل إن العلامة الحلي يرى أنه من المفسد جداً لو بدأ كل شخص

«يجتهد»: **«إذا ما أصبح الاجتهاد في المسائل الشرعية متاحاً لجميع الناس فستعمّ الفوضى العالم لأن هذا سيؤدي إلى أن كل شخص سيهتم بمعالجة المشاكل بدلاً من الانصراف إلى عمله وكسب رزقه»**. أي أن الحذّائين يجب أن يهتموا بقوالب أحذيتهم. أما مهمة الاجتهاد الصعبة والمؤلمة فيتولاها نيابة عنهم الخبراء المختصون.

وهذا يعني أن الاجتهاد يقتصر على عدد قليل من العلماء المختصين والمؤهلين للقيام بهذه المهمة. ويصبح المرء مجتهداً بأن يمنحه أحد المجتهدين هذه الصفة. وما زال الأمر على هذا الحال حتى اليوم، إذ إن المعلم يمنح تلميذه «إجازة» بممارسة الاجتهاد بصورة مستقلة. هناك إذاً عدد قليل من المجتهدين المختصين مقابل الأكثرية الساحقة من الناس البسطاء الذين يتحررون بذلك من المسؤولية عن قراراتهم. فهم يمارسون «التقليد». وإذا ما أخطأ المجتهد في اتخاذ القرار الصحيح فإن الإنسان البسيط الذي وثق بحكمه لا يتحمل أية مسؤولية. لكن المجتهد أيضاً يحق له الوقوع في الخطأ لأنه غير معصوم كما ذكرنا. إلا أن المطلوب منه هو أن يتخذ قراره بمنتهى الأمانة العلمية وراحة الضمير، لأنه سيحاسب على ذلك يوم القيامة. وبناء على ذلك فمن الممكن أن يتعارض المجتهدون لأن «الاجتهاد»، حسب قول العلامة الحلي، **«يمكن أن يكون صائباً أحياناً وخاطئاً أحياناً أخرى»**. ولذلك هناك قاعدة لم تزل صالحة حتى اليوم تقول: **«كل مجتهد مصيب»**، وهذا يعني أن كل مجتهد يتخذ قراره بمنتهى الأمانة العلمية وراحة الضمير له الحق في أن يطاع. وإذا ما تعارض مجتهدان يحق للناس أن يختاروا أيهما يتبعون.

يقوم النظام بكامله على أن كل قرار متخذ بهذه الطريقة معرض لأن يكون خاطئاً. صحيح أنه من الممكن إعطاء رئيس الطائفة الدينية وحده صفة العصمة في مسائل معينة كما فعلت الكنيسة الكاثوليكية لكن قبول العصمة لفئة كاملة من رجال الدين سيؤدي إلى نسف النظام خلال وقت قصير. ولذلك فإن اقتصار العصمة على «الأربعة عشر» ـ وهم جميعاً غير موجودين ولا يمكن سؤالهم ـ هو الذي يمنح نظام الشيعة الاثني عشرية القوة وهو في الوقت نفسه السبب في تمتعه بمرونة مبدئية: جميع الشخصيات الحاضرة معرضة للخطأ أي أن قراراتهم يمكن أن يعاد النظر فيها باجتهاد جديد يصدره مجتهد آخر ويمكن نقضها أيضاً أو تعديلها عند الحاجة.

وعن طريق استبعاد المجتهدين المتوفين اكتسب النظام مزيداً من المرونة. إذ إن العلامة الحلي نفسه وضع المبدأ القائل: «لا قول للميّت». فالمرء لا يستطيع الاعتراض على رأي مجتهد حي استناداً إلى مجتهد ميت، لأن المجتهدين الأحياء فقط يصدرون اجتهادات صالحة.

يتضح من كل هذا أن أداة الاجتهاد تجعل رجال الدين الشيعة قابلين، من حيث المبدأ، للتحول ومرنين إلى أبعد الحدود. وهذا لا يعني أنهم يجب أن يتخذوا قرارهم دوماً بما ينسجم مع التقدم والحداثة بالمعنى الغربي، بل إن الاجتهاد يمكن أن يؤدي إلى حلول محافظة أو إلى حلول تقدمية، ومن الممكن أن يعلل موقفاً تقشفياً بعيداً عن السياسة لكنه يمكن أن يعلل موقفاً ثورياً أيضاً.

يتقيد الناس البسطاء عادة بالاجتهادات الصادرة عن المجتهدين

المحليين في منطقتهم ويحاولون «تقليدهم». ولكن هناك شخصيات مشهورة عالمياً وهم كبار آيات الله الذين تحظى قراراتهم باحترام واسع النطاق يمتد من لبنان حتى الهند.

نشوء طبقة رجال الدين الشيعة (القرن السادس عشر)

لا يمكن الحديث عن «طبقة رجال دين» إسلامية أو عن الطبقة «الروحانية» بالمعنى الكنسي الغربي. ففي الإسلام السُّني والشيعي على حدٍّ سواء ليس المسؤولون عن رعاية الشؤون الدينية قساوسة بالمعنى الكنسي وإنما علماء. فهم لا يتلقون البركات القدسية ولا يديرون طقوس توزيع القرابين وما شابه، وإنما ينهون دراسة جامعية تتألف بمعظمها من قضايا حقوقية وشرعية. أي أن رجال الدين الشيعة أيضاً هم في المقام الأول حقوقيون. مع ذلك هناك أسباب كافية لأن نطلق عليهم تعبير «طبقة رجال الدين». أما تعبير «الروحانيون» (روحانيّان، بالفارسية) فقد صار رجال الدين الشيعة في إيران يطلقونه هم على أنفسهم في الآونة الأخيرة. غير أن تطور علماء الشيعة إلى طبقة رجال دين حقيقية كان نتيجة لعملية بدأت في إيران في القرن السادس عشر ولم تكتمل إلا في القرن العشرين.

في سنة 1501م تمكن إسماعيل الرئيس الشاب لطريقة من الدراويش الآذربيجانيين، معتمداً على مساندة قبائل تركمانية متنقلة، من الاستيلاء على الحكم في إيران ومنح نفسه اللقب الفارسي القديم «شاهنشاه» (أو ملك الملوك). وكان إسماعيل مؤسس الأسرة الملكية الصفوية التي حكمت إيران حتى سنة 1722م. في بادىء الأمر لم يكن الشاه إسماعيل شيعياً اثني عشرياً بالمعنى الحرفي للكلمة بل كان

يتبنى أفكاراً دينية غير متشددة إطلاقاً لكنه ما لبث أن أدرك بعد وقت قصير من حكمه ما للعقيدة الشيعية الاثني عشرية من قوة تأثيرية بالغة على تماسك الدولة والمجتمع. وبناءً على ذلك أعلن «الجعفرية» (نسبة إلى الإمام السادس جعفر الصادق) ديناً رسمياً لإمبراطوريته. في ذلك الوقت كانت المدن الكبيرة فقط في شمال غرب إيران شيعية. صحيح أن تقديس فاطمة وعلي وبقية الأئمة كان منتشراً في أوساط السكان الريفيين أيضاً لكن إيران كانت بمعظمها لم تزل بلداً سنياً. ولم يكن هناك علماء شيعة كي ينشروا المذهب الشيعي. ولذلك كان الملوك الصفويون، وخاصة الشاه إسماعيل وطهماسب (1524 ـ 1576)، مضطرين إلى طلب المعونة من البلدان العربية، من جنوب العراق وجنوب لبنان ومن ساحل الخليج العربي. فجاء من هناك عدد كبير من العلماء الشيعة الذين بدأوا بتكليف من الحكام بنشر وترسيخ العقيدة الشيعية في إيران. وتعود علاقات القربى بين الأسر الدينية الكبيرة والتي لم تزل وثيقة حتى اليوم إلى ذلك الزمن؛ كثير من العائلات الإيرانية لم تزل حتى اليوم تفتخر بأصلها اللبناني أو العراقي. وكثيراً ما تنشأ علاقات زواج عبر الحدود. ولم يزل الشيعة في إيران والعراق ولبنان يستفيدون من التضامن الذي يظهر فيما بينهم عند نشوب صراعات سياسية في الوقت الحاضر.

أهم العلماء الذين عملوا في خدمة الصفويين الكركي الذي ينحدر في الأصل من منطقة البقاع اللبنانية لكنه عاش منذ سنة 1504م تقريباً قرب ضريح الإمام علي في النجف وقضى بعد ذلك فترة من الزمن في إيران بدعوة من الشاه إسماعيل. وفي عهد الشاه طهماسب أقام بصورة دائمة في إيران وحظي بكثير من التكريم

والاحترام ومنح صلاحيات خاصة لنشر العقيدة الشيعية. لا بل إنهم كانوا يسمونه «نائب الإمام (الغائب)». لكن عمل الكركي لم يكن حسب التقليد الشيعي خالياً من المشاكل، فهو يدعم حاكماً دنيوياً لا يمكن أن يكون قد حصل على سلطته، حسب العقيدة الشيعية، إلا بالاغتصاب. وكان يصدر فتاوى يضفي بها صفة الشرعية على تصرفات للحكومة هي في الحقيقة والأصل من حق الإمام الغائب وحده أن يكون قد عيّن في جميع أرجاء البلاد أئمة الشيعة لقيادة صلاة الجمعة (بيش ـ نماز) فهذا أمر يمكن قبوله. لكنه أجاز شرعاً قيام الشاه بجباية الضرائب. إلا أن جباية الضرائب كانت، حسب المفهوم الشيعي، امتيازاً للإمام الغائب وحده. أما الكركي فكان يقول إن جباية الضرائب خدمة لمصلحة الجماعة ليست مسموحة وحسب بل وضرورية أيضاً وأن سلطة دنيوية ـ شيعية طبعاً ـ يجب أن تتولى هذه المهمة نيابة عن الإمام الغائب، وأن الرجل الشيعي لا يقترف ذنباً إذا ما تقاضى راتباً من هذه العائدات الضريبية. اعتمد الكركي في حجته هذه على أبحاث من عهد البويهيين الذين تحدثنا عنهم أعلاه. فقد كانوا آنذاك قد عالجوا مشاكل مشابهة في أوضاع مشابهة.

وضعت سياسة الصفويين لتشييع إيران في الوقت نفسه الأساس لنشوء طبقة رجال الدين الشيعة. وبذلك نشأت علاقة متبادلة غنية بالتوترات والخلافات بين رجال الحكم ورجال الدين. فقد كانوا قد عملوا يداً بيد ـ كل لمصلحته ـ من أجل تحويل إيران إلى بلد شيعي. لكن رجال الدين لم يصبحوا أبداً أداة طيعة في يد الحكم الملكي. بل ظلوا على الدوام ينظرون بعين الريبة إلى محاولات الملك حكم

البلاد بطريقة فردية مطلقة. وفي نهاية المطاف قضوا على النظام الملكي نهائياً في سنة 1979م.

نشأت في عهد الصفويين في إيران لأول مرة طبقة هرمية حقيقية من رجال الدين يقف على رأسها رجل دين يسمى «الصدر» لم تكن مهمته تبني مصالح الطبقة تجاه الملك وإنما وضع رجال الدين تحت إشراف ورقابة الدولة. في جميع المدن الكبيرة في المملكة تم تعيين شخصيات دينية رسمية على رأسها «شيخ الإسلام» و«القاضي»، وفي كل جامع إمام (بيش ـ نماز)، وفي كل قرية تحتوي على مسجد للصلاة يوم الجمعة «إمام جمعة» و«خطيب». وعمل الملك وأعيان البلد على زيادة الأملاك الوقفية ـ أراض في الريف وعقارات في المدن ومؤسسات اقتصادية ـ التي تستخدم عائداتها لتحويل المؤسسات الخيرية والدينية والتعليمية كالجوامع والمدارس والجامعات والمستشفيات وأيضاً لدفع الرواتب المخصصة لآل البيت أي المنحدرين من النبي محمد والأئمة. وبما أن علماء الدين الشيعة هم الذين يتولون إدارة «الخمس» المذكور أعلاه وخاصة «سهم الإمام»، وكانوا علاوة على ذلك يشغلون المناصب والوظائف المذكورة كخبراء قانونيين وكتّاب بالعدل، وكانوا أيضاً المدراء والمستفيدين المباشرين من المؤسسات الوقفية التي تراكمت لديهم على مرِّ القرون ثروات ضخمة جداً، فقد أصبح تحت تصرفهم مبالغ كبيرة من المال أكثر بكثير مما لدى زملائهم السنة. وكانت عائدات هذه الأملاك الوقفية، التي لا يجوز بيعها ولا توريثها ولا مصادرتها، يجب أن تنفق في جميع الأزمان على الفقراء والعلماء وطلاب الشريعة وجميع القضايا والخدمات الدينية الأخرى. أدت هذه

التبرعات الوقفية التي يقدمها الحكام وكبار رجال الدولة والمجتمع، وكذلك الشيعة البسطاء من مختلف أرجاء العالم، إلى تنامي الملكيات الوقفية للمؤسسات الدينية إلى درجة كبيرة، وخاصة وقفيات الأضرحة المقدسة في النجف وكربلاء وبغداد وسامراء ومشهد، وأيضاً في قم وفي كثير من الجوامع التي دُفن فيها أحد الأولياء. ولم يزل الأمر كذلك حتى اليوم.

الحكم الملكي ورجال الدين كخصمين (القرن السابع عشر)

كان الملوك الصفويون يعيدون نسبهم إلى الإمام السابع موسى الكاظم. صحيح أنه لم يكن من الممكن التحقق من صحة هذا النسب (وكان على أرجح الظن خاطئاً) لكنه كان مقبولاً بشكل عام. وهذا يعني أن أفراد الأسرة الحاكمة كانوا يعتبرون من «الأسياد (السادة)» أو «الأشراف» وكانوا بالتالي يتمتعون بالوجاهة التي يتمتع بها خلف النبي. أما الأسرتان الحاكمتان الإيرانيتان اللاحقتان وهما أسرة قاجار (1796 ـ 1925) وأسرة بهلوي (1925 ـ 1979) فقد تعين عليهما التخلي منذ البداية عن هذه الهالة الدينية. غير أن الملوك الصفويين أيضاً، الذين كانوا هم الذين ساعدوا العلماء على اكتساب تلك الأهمية الكبيرة في إيران، لم يكن في وسعهم إطلاقاً الاعتماد على طاعتهم العمياء. فمنذ القرن السابع عشر حدثت، حسب الأخبار التي وصلتنا من رحالة أوروبيين (جان شاردان 1666؛ إنغلبرت كيمبفر 1684 ـ 1685)، نزاعات بين الشاه ورجال الدين.

كان هناك طرفان يدعي كلّ منهما لنفسه السلطة: الأول هو الشاه الذي كان يستند في حكمه إلى تقليد عمره ألفا سنة وكان هدفه

إخضاع جميع السلطات لحكمه الملكي المطلق، والثاني هو طبقة رجال الدين التي تستمد شرعيتها من كونها تنوب عن حاكم مطلق أيضاً لكنه غائب. وبذلك كان من الممكن الطعن في أي وقت بسلطة الملك استناداً إلى الإمام الغائب. وهكذا أصبح رجال الدين القطب الذي يلتف حوله جميع المعارضين لنظام الحكم الملكي المطلق. هكذا كان دورهم في إيران منذ القرن السابع عشر، وانطلاقاً من هنا فقط يمكن فهم دورهم في الثورة الإسلامية سنة 1979م.

غير أن العلاقة المتوترة بين الملك ورجال الدين تضمنت أيضاً مراحل من الاتفاق والتفاهم لا بل ومن التعاون الوثيق. ولم تكن معارضة بعض الفئات الاجتماعية ضد حكم الشاه المطلق تكفي وحدها لتعريض النظام الملكي للخطر. بل فقط عندما كانت تتفق مصالح المعارضة السياسية مع مصالح العلماء ويقوم اتحاد فيما بين الطرفين كانت الملكية تتعرض لتهديد فعلي. كان التهديد بالإمام الغائب مسلطاً على الدوام كسيف داموكليس فوق رقبة العرش. ولذلك حاول الملوك الصفويون أن يكونوا هم أنفسهم على رأس الشيعة من الناحية الدينية أيضاً. بناء على انحدارهم المفترض (والمعترف به عموماً) من الإمام السادس فقد تصرفوا على أساس أنهم هم نواب الإمام الغائب، لا بل إنهم ادعوا العصمة التي تقتصر حسب العقيدة الشيعية على «الأربعة عشر»، وحاولوا إخضاع العلماء وجميع القوى الأخرى لسلطتهم. في النزاع الذي نشب سنة 1666م ضد طغيان الشاه عباس الثاني لبست المعارضة عباءة الدين في حججها وفي نشاطها. في ضاحية من ضواحي أصفهان ظهر داعية اسمه الملا قاسم ـ نموذج مبكر للإمام الخميني ـ وأعلن أن الشاه

الذي كان يشرب الخمر علناً، لا يمكن أن يكون خليفة الله على الأرض. بل إن هذه النيابة لا يستطيعها إلا «مجتهد»، أي عالم متعمق في أصول الفقه والشرع، يقود الناس على الطريق الصحيح استناداً إلى علمه ومعرفته لقوانين الدين. حاولوا آنذاك مواجهة الشاه «المعصوم» بـ«المجتهد المعصوم» واختاروا لهذه المرتبة مرشحاً عمره عشرون عاماً هو ابن شيخ الإسلام الحلي أعلى شخصية دينية في أصفهان. إلا أن الشاه أخفى الملا الخطير وأسكت المعارضة. وهكذا لم يكتب النجاح لنموذج «المجتهد المعصوم» وفشلت محاولة أخرى من المحاولات الكثيرة الرامية إلى تنظيم نيابة الإمام الغائب. وبذلك بقي نموذج المستقبل نموذج المجتهد غير المعصوم أو بتعبير أدق: مجموعة المجتهدين غير المعصومين وهو النموذج الذي حافظ بسبب استناده إلى مبدأ الخطأ والصواب على حركيته ومرونته.

في العقود الأخيرة من حكم السلالة الصفوية قام أيضاً مرة أخرى تعاون وثيق بين الملك ورجال الدين. وكانت أهم شخصية بين رجال الدين في أواخر القرن السابع عشر الشيخ محمد باقر المجلسي الذي قاد في سنة 1694م بصفته شيخ الإسلام في أصفهان مراسم تتويج الشاه حسين الأول ثم حاول بعد ذلك تنقية الشيعة في إيران من جميع بقايا التصوف والفلسفة وغير ذلك من المعتقدات الدخيلة. ولم يأنف المجلسي عن أن يكون الذراع الدنيوي للشاه. فقد كان يعتبر ممارسة السلطة الدنيوية مشروعة ولكن ليس كحق للحاكم بل إن الحاكم يمارسها كأداة في يد رجال الدين الذين ينوبون جماعياً عن الإمام الغائب. لا شك في أن الشاه كان يرى هذا الأمر بصورة

مختلفة، ولكن طالما كان الطرفان يجدان في التعاون فائدة لهما كان التباين الصارخ بين موقفيهما يبقى مستوراً.

قام المجلسي مرة أخرى بجمع جميع أحاديث النبي وأقوال الأئمة. ويتألف كتابه الضخم «بحار الأنوار» في طبعته الحديثة من 110 مجلدات. وعندما توفي في سنة 1700م دفن في مسجد الجمعة في أصفهان حيث لم يزل حتى اليوم يكرم كأحد الأولياء. وقد أصبح ضريحه مزاراً يحج إليه الناس.

الأصوليون والأخباريون

العقلانيون والتقليديون (القرنان السابع عشر والثامن عشر)

كان الفقه الشيعي الذي نشره في إيران العلماء الذين جلبهم الصفويون من العراق ولبنان ينتمي إلى «مدرسة الحلة» التي تقوم على المبدأ الذي وضعه العلامة الحلي والقائل بالدور المسؤول للاجتهاد أي بالتعليل المنطقي الذي يضعه عالم مختص. وقد أعطيت هذه المدرسة التي تعتمد على التعليل المنطقي استناداً إلى مبادىء ملزمة والتي يمثلها العقلانيون الشيعة اسم «المدرسة الأصولية» (استناداً إلى الكلمة العربية: الأصل أو الأصول).

لكن مبدأ هذه المدرسة لم يبق دون اعتراض. فكما هو الحال عند السُّنة وجد عند الشيعة أيضاً فقهاء اتخذوا موقفاً متشككاً من قدرات العقل البشري ورفضوا مبدأ الاستنتاج العقلي عند شرح مسائل الوحي الإلهي. بالنسبة لهم لا يصح إلى جانب النصوص القرآنية سوى أحاديث وتصرفات النبي والأئمة والتي سمعها أو شاهدها

أشخاص موثوقون، كان المؤسس النظري لهذا التيار التقليدي، الذي يسمى «المدرسة الأخبارية»، لأن أنصاره يعتبرون الأخبار المنقولة عن النبي والأئمة المصدر الوحيد للحقيقة، شيخ اسمه الملا محمد أمين الأسترابادي (توفي سنة 1624) الذي كان ينفي قدرة العلماء على استنباط الرأي الشرعي الصحيح عن طريق الاجتهاد، ويرفض بالتالي نيابتهم الجماعية عن الإمام الغائب، يحارب الأخباريون المكانة الاحتكارية للمجتهدين ويرفضون حقهم بأن يكونوا قدوة يتعين على الآخرين تقليدهم. وهم يرون أن كل شخص له الحق في أن يستخلص بصورة مباشرة ودون أي وسيط الحق والصواب من المصادر الأساسية للعقيدة. فهم إذاً «الأصوليون» الشيعة بالمعنى الحقيقي لهذا التعبير. لكن المدرسة الأخبارية التي كانت خلال القرن الثامن عشر لم تزل تتنافس مع المدرسة الأصولية على كسب تأييد الملك انهزمت في نهاية المطاف وأصبحت مجموعة هامشية لم يزل لها بعض الأتباع حتى اليوم ولكن خارج إيران ـ في البصرة العراقية وفي البحرين. إلا أن انتصار المدرسة الأصولية لم يتحقق في إيران وإنما في العراق وخاصة في النجف.

تلعب أضرحة الأئمة في العراق ـ في النجف وكربلاء والكاظمية قرب بغداد وفي سامراء ـ دوراً خاصاً في تاريخ الشيعة الحديث لأنها واقعة خارج إيران التي يتألف غالبية سكانها من الشيعة. لقد سبق وتحدثنا عن العلاقة المتوترة في أغلب الأحيان بين النظام الملكي ورجال الدين. فكلما كان علماء الشيعة يدخلون في صراع مكشوف مع الشاه كانوا يلجأون إلى «العتبات» أي إلى أضرحة الأئمة ويصبحون بالتالي في مأمن من بطش الحاكم، لاسيما أن

العراق أصبح منذ سنة 1638م ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية. وكان العثمانيون السنة يرحبون في بعض الأحيان بالمعارضين الإيرانيين لأنهم كانوا يستخدمونهم سياسياً ودعائياً ضد الشاه. كما أن الخميني أيضاً نزل سنة 1965، عندما طرده الشاه من إيران، في النجف لكي يحضّر للثورة من هناك؛ واتبع بذلك نموذجاً مجرباً منذ مائتي عام.

لم يتعرض الشيعة في العراق للمضايقة على يد العثمانيين. لا بل إن الأماكن المقدسة في كربلاء والنجف أصبحت في القرن الثامن عشر أهم من المراكز الشيعية المهمة لاسيما أن إيران بقيت بعد انتهاء عهد الأسرة الصفوية سنة 1722م غالباً بلا سلطة مركزية قوية حتى نهاية القرن.

لا بل إنه تعين على إيران خلال فترة العنف القصيرة التي حكم فيها نادر شاه (1736 ـ 1747م) أن تعود إلى المذهب السني. في ذلك الوقت فرَّ كثير من كبار العلماء الإيرانيين خوفاً من طغيان الشاه إلى العراق لكي يقيموا إلى جانب الأضرحة المقدسة.

في ذلك الوقت كانت الشخصية القيادية بين علماء كربلاء العالم الأصفهاني محمد باقر الوحيد البهبهاني (1705م ـ 1790م) الذي كان قد بقي في كربلاء بعد استكمال دراساته ودافع هناك بحماس شديد عن «المدرسة الأصولية» وفرض نظرية الاجتهاد. فقد كان يهاجم معارضيه من الشيعة بلا هوادة أو رحمة ويصف كل معارض للاجتهاد بأنه كافر، وكانت لديه فرقة خاصة «رجال الغضب» لملاحقة المخالفين ومعاقبتهم. وهكذا أصبح «التكفير» سلاحاً فعالاً

في يد المجتهد في دفاعه عن المدرسة الأصولية ضد جميع الآراء المعارضة لها. وبهذه الطريقة تمَّ تطهير الشيعة الاثني عشرية، على الأخص في القرن التاسع عشر، من جميع التقاليد والاتجاهات القديمة المعارضة لها (كالصوفية، والغنوصية، والألفية) ومن البدع الإلحادية والهرطقات (كالبابية، والبهائية، وغير ذلك). ويعدّ الوحيد البهبهاني «مجدداً» لا بل و«المؤسس» الحقيقي للأرثوذوكسية الشيعية كما انتشرت في القرن التاسع عشر في إيران أيضاً.

ذراع دنيوي وذراع ديني (القرن التاسع عشر)

أسفرت الاضطرابات السياسية التي حدثت في القرن الثامن عشر عن انتصار اتحاد مؤلف من عدد من القبائل البدوية التركمانية الموجودة في شمال إيران وتسمى «قاجار» والتي اتخذ أميرها في سنة 1796م لقب «ملك الملوك» (شاهنشاه). وأصبحت طهران التي كانت مقر الأمراء القاجاريين العاصمة الجديدة لإيران.

لم يكن للملوك القاجاريين، الذين حكموا إيران حتى سنة 1925، أي شرعية دينية من ناحية المنبت العائلي. وقد استندوا في اتخاذهم لقب شاهنشاه إلى تقاليد النظام الملكي الإيراني القديم الذي كان سائداً في بلاد فارس قبل الإسلام. ولكن لكي يضمنوا استقرار حكمهم كان لا بد لهم من أن ينالوا رضا رجال الدين الشيعة وإلا فإن أية معارضة ضد الأسرة الحاكمة الجديدة كانت ستستعمل بكل سهولة حججاً دينية. وهكذا تظاهر الشاهان القاجاريان الأولان بالإيمان والتقوى: قام مؤسس السلالة الحاكمة بنقل رفات أجداده من أستراباد (جنوب شرق بحر قزوين) إلى النجف وأمر بطلاء قبة

الضريح في كربلاء بالذهب. وكان الحاكم الثاني، فتح علي شاه (1797 ـ 1834)، يحج كل عام من طهران إلى قم إلى مقام فاطمة المعصومة، وقام بإعفاء سكان المدينة من جميع الضرائب وجدد المدرسة «الفيضية» الواقعة إلى جانب المقام ومسجد الجمعة مباشرة وهي تلك المدرسة الشرعية التي شاء القدر أن تكون سنة 1963م نقطة انطلاق الثورة الإسلامية وهي اليوم المركز الروحي للشيعة الإيرانية.

إلا أن مقام كربلاء راح سنة 1802م ضحية التطرف السني المعادي للشيعة إذ كانت قد نشأت في شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثامن عشر حركة تجديدية متقشفة سميت الحركة الوهابية. اعتمد مؤسسها الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1703 ـ 1792م) على القوة العسكرية لعائلة آل سعود التي بدأ بذلك صعودها لتصبح أسرة ملكية. فالوهابيون، «الأصوليون» بالمعنى الأصلي للكلمة، يرفضون جميع الممارسات الدينية التي لم يسمح بها القرآن أو السنة بنص صريح ويعتبرونها «بدعة» خارجة عن الإسلام ويشمل هذا أيضاً، حسب رأيهم، تقديس الأولياء وما يرتبط بذلك من زيارة للقبور. وهم يعتبرون الشعائر التي يؤديها الشيعة في تقديسهم للأئمة نوعاً من عبادة الأصنام. ويعتبرون المقامات الفخمة المبنية فوق قبور الأئمة والأولياء نوعاً من المعابد الوثنية. ولذلك شنوا في إبريل/ نيسان 1802 هجوماً على مقام الإمام الحسين في كربلاء، امتزجت فيه شهوة الغنيمة والحماس الديني بأجلى صورة، ودمروا مقام سيد الشهداء الحسين وقتلوا نحو 2000 شخص. وفي سنة 1804م احتلوا المدينة (المنورة) وفي سنة 1806م مكة. هنا أيضاً قضوا على مظاهر

تقديس الأولياء والقبور. فدمروا في المدينة وفي مقبرة البقيع أضرحة الإمام الحسن، والإمام علي زين العابدين، والإمام محمد الباقر، والإمام جعفر الصادق. ولم يزل التناقض الشديد بين الإسلام الوهابي والإسلام الشيعي الاثني عشري يؤجج حتى اليوم الخصومة ـ ذات الدوافع السياسية ـ بين المملكة العربية السعودية وجمهورية إيران الإسلامية في نزاعهما حول الهيمنة على منطقة الخليج.

كونهم تركماناً لم يكن في وسع الملوك القاجاريين اكتساب مكانة الشخصية الدينية المهابة بحكم نسبها بحد ذاته. بل كانت فكرة الانتساب إلى أحد الأئمة ـ كما ادعى الصفويون ـ مستبعدة منذ البداية. لذلك كانوا مضطرين إلى التعاون مع علماء الشيعة ذوي النفوذ الواسع وكانوا يحاولون دعمهم بكل ما لديهم من قوة وجذبهم للتقرب من البلاط. ومن جهتهم كان العلماء أيضاً مستعدين لتعاون محدود مع الأسرة الحاكمة لكن شكَّهم العميق الجذور تجاه النظام الملكي ظل قائماً. فقد كان عدد غير قليل منهم يرفض المجيء إلى طهران لكي لا «يتلوثوا» بالحكم الملكي.

بما أن المملكة القاجارية كانت تفتقر لكل شكل من أشكال الشرعية الدينية فقد كان سكوت العلماء عنها يتوقف على مدى التطابق بين مصالح الطرفين. ظل الأمر كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر. كان هناك نوع من «الاتفاق الضمني»، وخلال الحكم القاجاري بكامله لم يكتب العلماء أي بحث يعرضون فيه عدم شرعية السلطة الدنيوية. كان الطرفان متفقين ضمنياً على مبدأ يذكرنا بمقولة «السيفين» التي كان منظرو علم الدولة في القرون الوسطى يشرحون

بها العلاقة بين القيصر والبابا. تقوم هذه المقولة على أن كل سلطة من السلطتين مكلفة من الله لمهمة، وهاتان المهمتان اللتان تكمل كل منهما الأخرى تخدمان الهدف نفسه ألا وهو المحافظة على النظام الذي أراده الله على الأرض. ولذلك فإن النيابة عن الإمام الغائب ـ الذي يجمع وحده في شخصه القيادتين الروحية والدنيوية ـ تكون خلال غيابه موزعة بين ذراعين: الذراع الدنيوي للحاكم الملك تعمل على فرض القانون والنظام وتحمي البلاد عسكرياً بينما يتولى العلماء مهمة الحراسة الروحية: فهم يراقبون جميع تصرفات الحكومة من الناحية الشرعية ويسهرون على المحافظة على النظام الذي أراده الله كما جاء في القرآن والحديث (الشريعة).

مرجع التقليد

خلال القرن التاسع عشر تغلبت مدرسة الأصوليين، أو مدرسة «أتباع المبادىء» ـ أي ممثلي الاستنباط الشرعي المستقل استناداً إلى المحاكمات العقلية (الاجتهاد) ـ في العراق وفي إيران بصورة نهائية على جميع التيارات الأخرى داخل المذهب الشيعي. أما «التقليديون» (أتباع المدرسة الأخبارية) فقد أصبحوا مجموعة هامشية لا أهمية لها. وحاول «المجتهدون» تطهير الشيعة بواسطة سلاح «التكفير» من جميع بقايا التدين الصوفي أو الغنوصي أو الألفي وأخرجوا الحركات الدينية الجديدة كالبابية والبهائية وغيرها من دائرة الأرثوذوكسية التي أصبحت أضيق من الماضي. في ذلك الوقت اتخذت الشيعة الاثنا عشرية الشكل الذي نعرفها عليه اليوم. كما أن النظرية القائلة بأن العلماء المختصين (الفقهاء) يتولون خلال فترة غياب الإمام الغائب

جميع مهامه نيابة عنه اتخذت صيغتها النهائية. أما ماهية هذه المهام فقد كان حددها في القرن العاشر محمد بن يعقوب الكليني أقدم جامعي أقوال الأئمة، إذ قال: «**تخضع لسلطة الإمام قيادة المصلين وجمع الزكاة وتنظيم الصيام (في رمضان) وشؤون الحج والجهاد والصدقات وتنفيذ العقوبات الجسدية المفروضة في القرآن (الحدود) وإصدار الأحكام والدفاع عن الحدود**».

وهذا يعني أن العلماء المختصين، أي المجتهدين، مسؤولون عن كل هذه الأمور وبإمكانهم، حسب نظريتهم، استخدام الذراع الدنيوية لتحقيق ذلك. لكن التمتع بالكفاءة اللازمة لاتخاذ القرار العقلاني الصحيح، أي للاجتهاد، أصبح الآن يقتصر على عدد قليل جداً من العلماء. في الأحوال المثالية يكون القرار الأخير للعالم «الأفضل» أو «الأعلم». ولكن من هو الأفضل والأعلم وما هي الشروط التي يجب أن تنطبق عليه وكيف يمكن التحقق من هذه الشروط واختيار الشخص المناسب؟ هذه الأسئلة لم تزل تشغل بال المجتهدين منذ ذلك الحين. ويلاحظ مع مرور الزمن أن هناك ميلاً إلى تثبيت النظام الهرمي باختيار رئيس ثابت له. صحيح أن النيابة عن الإمام الغائب هي، حسب النظرية، في يد جماعة العلماء المؤهلين ولكن وجود مرجع أعلى كان حاجة ملحة: من الناحية النظرية كان من الممكن القبول بوجود مجتهدين غير معصومين يتخذون قرارات يمكن أن تكون متناقضة ولها صلاحية مؤقتة فقط، ولكن على الصعيد العملي كانت هناك مطالبة قوية بوجود مرجعية عليا معترف بها من الجميع.

قبل قيام الثورة الإسلامية في إيران لم يتخذ مركز «العالم الأفضل» صفة المؤسسة الرسمية المعتمدة عموماً. مع ذلك فقد اكتسب منذ القرن التاسع عشر بعض المجتهدين المتميزين بناء على كفاءاتهم الشخصية العالية وشعبيتهم الواسعة مرتبة الشخصية الدينية المعترف بها عموماً وأصبحوا يسمون «مرجع التقليد»، وهذا يعني أن الاقتداء بهم صار ملزماً وأن قراراتهم صارت مطلوبة ومقبولة على نطاق واسع أي خارج الإطار المحلي أو الإقليمي الذي يمارس فيه المجتهد عادة نشاطه. لننتبه هنا إلى أن «التقليد» يعني الخضوع لمرجعية ما، وهذا يتناقض تماماً مع «الاجتهاد» الذي يعني استخلاص الرأي الصحيح بصورة مستقلة: فبينما هناك عدد قليل فقط من الخبراء المختصين الذين يحق لهم الاجتهاد، يتعين على الجماهير الواسعة من عامة الناس ممارسة التقليد أي الخضوع للمرجعية الأعلى والانضواء تحت قيادتها.

أما الخصائص التي يجب أن يتمتع بها العالم «الأفضل» أو «الأعلم» وكيف يستطيع المرء معرفتها فهذه مسألة مختلف عليها بين المجتهدين أنفسهم. فهناك عدد لا حصر له من الخلافات حول مسألة «التأهيل الأعلى» أو ما يسمى «الأعلمية». بعض الشيعة يرون أن شخصاً واحداً لا يستطيع أبداً التمتع بجميع المؤهلات التي تتطلبها الحياة. ولذلك يدعون إلى تضافر القوى ويطالبون بتأسيس «أعلمية جماعية» أي مجلس أعلى يضم كبار المجتهدين. على الصعيد التطبيقي استطاع المرجعيون حتى الآن فرض آرائهم دون إجراءات رسمية، إذ إن مكانتهم المرموقة تعتمد على اعتراف الناس بهم عفوياً دون أي ضغط أو إكراه.

كان المجتهد الأول الذي اعترف به جميع الشيعة الاثني عشرية كـ«مرجع التقليد» مرتضى الأنصاري (توفي 1864م) المنحدر من خوزستان (جنوب غرب إيران) والذي عمل زمناً طويلاً في إيران ثم انتقل سنة 1833م إلى النجف.

ظلت مقامات الأئمة في العراق خلال القرن التاسع عشر بكامله المراكز الروحية للمذهب الشيعي. ولكن في القرن العشرين أخذت قم تلعب هذا الدور. لم يكن للأنصاري خليفة مباشر. بل مضت فترة من الزمن إلى أن حظي مرجع جديد باعتراف عام وهو ميرزا محمد حسن الشيرازي الذي استقر عند مقامي الإمامين العاشر والحادي عشر في سامراء والذي سيرد ذكره مرة أخرى عند حديثنا عن النزاع حول احتكار التبغ. وأيضاً بعد وفاته في سنة 1895م مرت فترة من الزمن دون وجود مرجعية عليا معترف بها عموماً. في عشرينيات القرن العشرين تقاسم هذه المكان ثلاثة مراجع اثنان منهم كانوا ما زالوا في النجف ولكن كان إلى جانبهما لأول مرة ذلك الرجل الذي أعطى قم دوراً قيادياً في الحياة الروحية للشيعة ألا وهو: آية الله **الحائري** (توفي 1937) أستاذ الخميني.

أما المرجع الأعلى الثالث المعترف به عموماً فقد كان منذ سنة 1949 آية الله حسين **البروجردي** الذي كان يلقي الدروس في قم. وعندما توفي في سنة 1962م حاول الشاه محمد رضا بهلوي بكل جهده إسناد هذا المنصب الرفيع إلى رجل غير إيراني لكي يضعف نفوذ رجال الدين في بلاده ولكنه لم يفلح. فقد أرسل برقية إلى العالم العراقي آية الله محسن الحكيم في النجف أبلغه فيها بوفاة البروجردي وحاول بذلك تنصيبه خليفة له. لكن رجال الدين في قم كانوا في هذه

الأثناء قد اكتسبوا ثقة كبيرة بالنفس بحيث لم يعودوا يعترفون بتفوق النجف عليهم ولا يقبلون بأن يتولى عربي منصب المرجع الأعلى.

بعد عام 1962م كان هناك في الوقت نفسه ما لا يقل عن ثمانية علماء معترف بهم على نطاق واسع كمراجع تقليد وكزعماء روحيين يتمتعون بأعلى درجات التقدير والاحترام، ثلاثة منهم في النجف وهم: العربي محسن الحكيم والإيرانيان **شاهرودي والخوئي**؛ وواحد في طهران (**خوانساري**)، وواحد في مشهد (**الميلاني**)، وثلاثة في قم (**الكلبايكاني، والمرعشي النجفي، وشريعت مداري**) نتيجة الأحداث التي وقعت سنة 1963/ 1964م وأدت إلى طرد الخميني، الذي كان حتى ذلك الحين غير معروف، انتقل الخميني إلى دائرة الضوء وأصبح، عندما استقر سنة 1965 عند الأماكن المقدسة في النجف، قائد كلمة المعارضة الدينية ضد نظام الشاه وصعد بسرعة كبيرة إلى مرتبة المرجع. وعندما منح الخميني سنة 1979 بحكم الدستور مرتبة «قائد» (**رهبر**) الثورة، أي عندما اتخذ المنصب صفة المؤسسة، دخل إلى الترتيب الهرمي لرجال الدين الشيعة، الذي كان تقليدياً غير رسمي، عنصر جديد كلياً ـ ومختلف عليه. إذ إن موقف بقية المراجع من دور «القائد» تراوح بين الموافقة، والتحفظ الواضح (**الخوئي، والكلبايكاني، والميلاني، والخوانساري**)، والمعارضة الصريحة (شريعت مداري).

وبعد الثورة الإيرانية، في بداية الثمانينيات، تمَّ الاعتراف، إلى جانب قائد الثورة الخميني، بثمانية مجتهدين كمراجع تقليد لم يكن بينهم سوى رجل واحد في العراق (الخوئي)، والسبعة الباقون في

إيران وهم: **شريعت مداري، والمرعشي، والكلبايكاني**، في قم؛ والشيرازي، **وقمّي** في مشهد؛ **وخوانساري** في طهران؛ **ومحلّاتي** في شيراز.

في هذه الأثناء تراجع مرة أُخرى عدد المرجعيين: في سنة 1986 توفي شريعت مداري الذي وضع خلال الأعوام الأخيرة من حياته تحت الإقامة الجبرية في منزله؛ وفي سنة 1989 توفي الخميني، وفي سنة 1991 توفي في قم جامع الكتب الواسع المعرفة مرعشي، وفي سنة 1992 توفي في النجف عن 93 عاماً آية الله الخوئي الذي كان يتمتع في نهاية الأمر بأعلى مكانة بين جميع المرجعيين ـ إلى درجة أن الشيعة في حيدر آباد الهندية اعترفوا به كمرجع للتقليد وكانوا يرسلون له «الخمس»، ولذلك حاول صدام حسين استخدامه في سبيل أهدافه السياسية ولكن دون جدوى. وبعد وفاة **الكلبايكاني** في ديسمبر/ كانون الأول 1993 لم يبق في قم سوى آية الله **أراكي** كمرجع معترف به عموماً، وبقي في النجف آيات الله **كاشاني**، والشيرازي، وعلي السيستاني الذي برز فيما بعد كأعلى شخصية دينية في العراق. إلى جانبهم يقف خليفة الخميني و«قائد» الثورة الحالي في إيران علي خامنئي الذي يتمتع بدور سياسي خاص. في الوقت الحاضر أصبح منصب «مرجع التقليد» يمنح لأعلى مرتبة في هرم الألقاب الذي تضخم جداً في الآونة الأخيرة وهي مرتبة «آية الله العظمى».

إلا أن حصر مرجعية التقليد في أيدي عدد قليل ـ متبدل ـ من الشخصيات الدينية لم يغير أي شيء في الفرضية المبدئية القائلة بعدم

عصمة المجتهد: فليس هناك أي مرجع معصوم عن الخطأ؛ بل إن كل قرار هو قرار مؤقت وقابل من الناحية المبدئية للإلغاء باجتهاد صادر عن مرجع آخر. من الطبيعي أنهم يحرصون على الصعيد التطبيقي على هيبة «مرجع التقليد» ولا ينقضون قراراته إلا في حالات نادرة لكي لا يضعفوا مركزه ولأن هذا سيسيء إلى سمعة طبقة علماء الدين بكاملها.

الفصل الرابع

الشيعة الثورية

النضال ضد تقليد الغرب

تمثل النفوذ الاجتماعي لرجال الدين الإيرانيين في القرن التاسع عشر، في المقام الأول بالدور المزدوج الذي تولوه ـ ودون شك لما فيه مصلحتهم أيضاً: فقد عملوا من الناحية الأولى كحماة لمصالح السكان تجاه الأسرة الحاكمة الأجنبية (أسرة القاجار التركمانية) واعتبروا أنفسهم، من الناحية الأخرى، حماة للمصالح الإيرانية تجاه النفوذ الأوروبي، وخاصة الاقتصادي، المتزايد في بلدهم. ولا يزالون حتى اليوم يلعبون هذا الدور «القومي» الرائج شعبياً، وبدون هذين العاملين لن يكون من الممكن فهم تأثيرهم الكبير في قيام الثورة سنة 1979م.

في كلا الدورين يرتبط رجال الدين الشيعة ارتباطاً وثيقاً بالبازار، بالاقتصاد التقليدي للمدن الإيرانية، وبالحرف اليدوية والتجارة والإقراض المالي. ولهم مع هذه الطبقة، التي هي غالباً الشريحة المتوسطة من التجار ورجال الأعمال، صلات اجتماعية قوية لا تقتصر على الأصل الواحد والقرابة والمصاهرة فحسب، بل إن

رجال الدين يعيشون من هذه الطبقة لأن «الخمس» مع «سهم الإمام» الذي يتولون إدارته يأتي، بالدرجة الأولى، من مداخيل تجار البازار والعاملين فيه. وبما أن الناس أنفسهم هم الذين يقررون لأي من رجال الدين سيدفعون الخمس فإن تجار السوق لديهم أداة قوية للتحكم: فهم يستطيعون دعم بعض المجتهدين بالولاء والمال وترك البعض الآخر «يموت جوعاً» إلى حدٍّ ما. إذ إن المجتهد غير القادر على دفع الصدقات والإنفاق على الأعمال الخيرية ـ أو غير القادر، مثلاً، على تغطية نفقات المعيشة المتواضعة لتلاميذه ـ يفقد بسرعة كثيراً من نفوذه.

كان للتوافق المصلحي بين التجار ورجال الدين، والذي ساهم جوهرياً في نجاح الثورة سنة 1979م، تأثير قوي منذ القرن التاسع عشر. ففي سنة 1850 تقريباً بدأ الشاهات القاجاريون ـ مثل السلاطين العثمانيين في اسطنبول ـ بإجراء سلسلة من الإصلاحات التي ينبغي لها أن تجعل من إيران دولة حديثة على الطراز الأوروبي ولم يكتف ناصر الدين شاه (1848 ـ 1896م) بجلب المستشارين الأوروبيين إلى الجيش والقضاء والتعليم بل جلب أيضاً أموالاً أوروبية ورجال أعمال أوروبيين استقروا في إيران وسيطروا على فروع هامة من الاقتصاد الإيراني. فشعر التجار الإيرانيون التقليديون ـ أي تجار «البازار» ـ بأن هذا التطور يهدد مصالحهم. ولكن إذا ما فقر تجار البازار ستنضب أيضاً عائدات «الخمس».

أُضيف إلى ذلك أن رجال الدين الشيعة فقدوا، نتيجة إنشاء مؤسسات تعليمية حديثة وتشكيل هيئات قضائية جديدة منظمة على

الطريقة الأوروبية، حقلين أساسيين ـ مواردهما عالية ـ من حقول عملهم كانا منذ قديم الزمان حكراً عليهم.

ليس هنا المكان المناسب للحديث عن العلاقة المتوترة بين النظام الملكي ورجال الدين في القرن التاسع عشر. لكن حالة واحدة يجب أن نذكرها لأنها تعبر عن الطريقة التي حاول بواسطتها رجال الدين فرض نفوذهم، وهي حالة النزاع المشهور حول احتكار التبغ.

من أجل دعم الاقتصاد الإيراني (وزيادة وارداته الشخصية) منح الشاه الدول والشركات الأجنبية العديد من الامتيازات والاحتكارات. في سنة 1879 حصل الروس على حقوق صيد السمك في بحر قزوين بكامله، وفي سنة 1889 سمح للبريطانيين بتأسيس «إمبريال بانك أوف برزيا». وبلغ بيع المصالح الاقتصادية المحلية ذروته عندما أعطى الشاه سنة 1890 الشركة البريطانية «إمبريال توباكو كومباني» الحق الحصري بتسويق جميع إنتاج التبغ الإيراني لمدة خمسين عاماً لقاء مبلغ سنوي ثابت قدره 15,000 جنيه إسترليني وربع الأرباح. كان الضرر الذي لحق نتيجة هذا الاحتكار بمنتجي التبغ الريفيين قليلاً نسبياً ـ لأن الاحتكار ضمن لهم دخلاً منتظماً كل عام ـ إذا ما قيس بخسائر كبار التجار ومانحي القروض التقليديين في البازار الذين أصيبت مصالحهم الاقتصادية بأضرار بالغة. ولما أعربوا عن غضبهم على هذا الوضع قدّم لهم رجال الدين بكل سرور السيف الديني للكفاح ضد «الكفار». فقد أرسل شيرازي، الذي كان آنذاك معترفاً به عموماً كأعلى مرجع ديني، من مكان إقامته في الأماكن المقدسة في سامراء برقية احتجاج إلى الشاه. إلا أن ما كان له مفعول أقوى بكثير

فتوى تناقلها الناس في ديسمبر/ كانون الأول سنة 1891 في طهران قيل إنها صادرة عن شيرازي (الأمر الذي لم يثبت بصورة أكيدة حتى اليوم). نصت هذه الفتوى على أن تدخين التبغ بمختلف أشكاله يعدّ تصرفاً عدائياً ضد إمام العصر، أي ضد الإمام الثاني عشر الغائب. وانتشرت الفتوى بسرعة الريح في جميع أنحاء إيران وخلال فترة قصيرة اختفت الغلايين والنراجيل من المقاهي. فقد توقف الناس عن التدخين في إيران بأسرها. عندئذ طلبت الشركة البريطانية من الشاه إلغاء الاحتكار الذي أصبح بلا فائدة. وبالفعل أُلغي الامتياز في يناير/ كانون الثاني 1892. وفي الشهر نفسه صدرت فتوى جديدة نقلت برقياً، وكانت هذه المرة صادرة بالفعل عن المرجع الأعلى شيرازي في سامراء، وسمحت بتدخين التبغ.

في النزاع الذي نشب سنة 1906 حول وضع دستور للبلاد وقف عدد غير قليل من رجال الدين الإيرانيين إلى جانب الشاه الليبرالي الدستوري ولكن ليس لأنهم كانوا من دعاة تطبيق الديمقراطية في إيران وإنما لأنهم كانوا يعتبرون أي إضعاف للحكم الملكي المطلق سيؤدي إلى تقوية مركزهم هم. إلا أن غالبية رجال الدين كانوا ينظرون بعين الريبة إلى الحركة الدستورية ولذلك سعوا إلى تعزيز نفوذهم بأن فرضوا المادة الثانية من الملحق المضاف لدستور 7 أكتوبر(تشرين الأول 1907 التي أخضعت جميع قرارات البرلمان لرقابة هيئة مؤلفة من خمسة مجتهدين للتأكيد من أن القانون الذي يقره البرلمان يتفق مع النظام القانوني الذي أراده الله أي مع الشريعة. بذلك ضمن رجال الدين لأنفسهم حق نقض جميع القرارات التي تتخذها السلطة التشريعية. وبما أن الدستور قد تمَّ تعطيله عملياً

بعد قيام الشاه بحل البرلمان الثاني في سنة 1911فقد تعطلت أيضاً هذه المادة الثانية المشهورة. لكنها لم تنس. فعندما وضع دستور الجمهورية الإسلامية سنة 1979 عادوا إليها وأدخلوها في الدستور الجديد.

بعد سقوط الأسرة الحاكمة القاجارية وتولي رضا خان، العسكري آنذاك، السلطة تحت اسم «رضا شاه بهلوي» تراجع رجال الدين الإيرانيون إلى مواقع الدفاع. إذ إن رضا شاه (1925 ـ 1941) الذي كان معجباً بكمال أتاتورك حاول مثل هذا الأخير تحويل بلاده إلى دولة علمانية حديثة. فأجبر جميع السلطات المحلية ـ مثل حكام الأقاليم والأرستقراطية وأمراء البدو ورجال الدين ـ بالقوة على الخضوع لسلطة الشاه الفردية المطلقة. وكان يبتغي من وراء ذلك كسر شوكة رجال الدين والحد من نفوذهم الاجتماعي. وكما فعل أتاتورك فرض رضا شاه أيضاً اللباس الأوروبي على الرجال (1929م) ومنع النساء من ارتداء العباءة التي تغطي كامل الجسم (التشادور) (سنة 1936م). وبما أن الشاه سمح لرجال الدين فقط بارتداء الجبة والعمامة وفرض عليهم، من أجل الاعتراف بهم كرجال دين، الخضوع لامتحان أمام لجنة حكومية رسمية فإنه بذلك أكمل تحويل رجال الدين إلى طبقة متميزة. إذ فقط من الآن فصاعداً أصبح العلماء طبقة خاصة متميزة عن بقية فئات الشعب بلباسها. علاوة على ذلك فقد مُنعت مواكب المآتم والعزاء العامة في شهر محرم وحُظر اللطم ومواكب العزاء. وأصبحت الشؤون التعليمية والقانونية علمانية، أي غير خاضعة لسلطة رجال الدين، ونقلت دراسة الحقوق والشريعة إلى جامعة طهران، التي تأسست سنة 1935، ووضعت بذلك تحت

رقابة الدولة. فقط من يحصل على شهادة الحقوق من هناك يمكنه أن يصبح قاضياً. أما عمل رجال الدين فقد أصبح مقتصراً على الشؤون الدينية. في سنة 1932 حرموا من حق احتكار تصديق وتوثيق الاتفاقيات والعقود ـ نوع من مهام الكاتب بالعدل، وخاصة في الريف ـ وفقدوا بذلك مصدراً مهماً من مصادر الدخل. في ذلك الوقت كان جزء كبير من الطلاب متحمساً للدعوة إلى النهضة والحداثة. وكان الجيل الشاب من المثقفين ذا ميول ليبرالية وعلمانية ومعارضة لرجال الدين.

عندما حاول رضا شاه التقرب من الرايخ الألماني أجبره الحلفاء على التنازل عن العرش لصالح ابنه محمد رضا. عندئذ خف بشكل واضح الضغط المفروض على رجال الدين. فاستغل الملالي ضعف الشاه الشاب لكي يستعيدوا ما فقدوه من نفوذ؛ في سنة 1948 أصدر خمسة عشر مجتهداً قيادياً فتوى نصت على أن ارتداء التشادور واجب وإلزامي، ولم يجرؤ الشاه على معارضة هذه الفتوى. كما أن عادات عاشوراء التي منعها رضا شاه، مع ما يتخللها من مواكب اللطم والعزاء أُعيد إحياؤها من جديد. لكن الشاه الجديد ظل متمسكاً بكل حزم بخط أبيه العلماني وخاصة بعدما قضى بمساعدة الولايات المتحدة الأمريكية على التوجه القومي لرئيس وزرائه مصدق (1951 ـ 1953) وعاد إلى العرش أكثر قوة. خلال الفترة الممتدة من سنة 1953 حتى سنة 1963 اشتدت حدة التوتر بين الحكم الملكي ورجال الدين ـ دون أن يلاحظ الغرب ذلك على الإطلاق ـ لكي تنفجر في نهاية المطاف بمنتهى الحدة والعنف.

صعود قم

مدينة قم الواقعة على بعد 140 كيلومتراً جنوب غرب طهران هي من أقدم المراكز الشيعية على الأرض الإيرانية. إلا أن دورها القيادي كحصن للثورة الإسلامية حديث العهد. كانت المدينة الإيرانية القديمة قم قد دمرت، على الأرجح، عند الاحتلال العربي الإسلامي لإيران في منتصف القرن السابع، ولكن أعيد بناؤها سنة 712م أو 713م على يد عرب شيعة جاؤوا من الكوفة واستوطنوا فيها وظلت عدة قرون محافظة على طبعها كمستعمرة عربية. وفي سنة 816م أو 817م توفيت هناك أخت الإمام الثامن فاطمة المعصومة التي يعود لضريحها الفضل في إعطاء المدينة صفة قدسية. وفي القرن العاشر أصبحت قم، إلى جانب بغداد، أهم مركز للعلوم الشيعية الاثني عشرية. ولكن في سنة 1224م تدمرت المدينة خلال الغزوة المغولية الأولى وفقدت لأكثر من قرنين من الزمن كل أهمية. ولم يرد لها أي ذكر حتى القرن الرابع عشر. ولما استولت الأسرة الصفوية الشيعية على الحكم (1501م ـ 1722م) أعيد إحياء قم من جديد. إذ إن الصفويين، وخاصة الشاه عباس الأول (1588 ـ 1629)، حاولوا، وقبل خضوع العراق سنة 1638م لحكم العثمانيين السنة، جذب

الحجاج الشيعة من مقامات الأئمة في العراق إلى المقامين المقدسين الموجودين في إيران، في قم ومشهد. فقام الشاه عباس الأول بتخصيص أوقاف غنية لصالح مقام فاطمة المعصومة وأمر ببناء مدرسة ومأوى للحجاج هناك. وأوصى العديد من خلفائه بأن يدفنوا في قم. وفي سنة 1533م تأسست هنا المدرسة الشرعية التي سميت «المدرسة الفيضية» نسبة إلى عالم الدين الشهير الذي كان يدرّس هناك محسن فيض كاشاني ولم تزل تحمل هذا الاسم حتى اليوم.

كما أن قُرب قم من طهران التي اتخذ منها القاجار (1796 ـ 1925) عاصمة لهم كان مفيداً لها. إذ إن المقام ذا القبة المطلية بالذهب، والجامع الواقع إلى جانب المقام والمزود بقبة كبيرة مزينة بالخزف، والمدرسة الفيضية الملاصقة للجامع، اتخذت جميعها شكلها الحالي بواسطة المؤسسات الوقفية التي أنشأها ملوك القاجار الذين اختاروا قم، فضلاً عن ذلك، لتكون مقبرتهم المفضلة.

خلال القرن التاسع عشر لم تكن المدرسة الفيضية قادرة على مضاهاة المراكز التعليمية الشيعية الأخرى؛ فالمقامات العراقية أو «العتبات»، وعلى رأسها النجف، كانت لها سمعة أعلى جداً. ولم يتغير هذا الوضع إلا في عشرينيات القرن العشرين. ويعود الفضل في صعود قم إلى آية الله عبد الكريم الحائري اليزدي (1859م ـ 1937م) المولود في يزد في وسط إيران والذي استقر، بعد إنهاء دراسته في النجف وسامراء، في بادىء الأمر في أراك الواقعة في غرب إيران ثم بعد ذلك في النجف وكربلاء وأخيراً عاد سنة 1913م إلى أراك. مثل هذا التنقل من مكان إلى آخر لغرض الدرس والتدريس شائع جداً في

أوساط العلماء الشيعة وفي سنة 1922 لبّى دعوة إلى قم حيث بدأ بإصلاح نظام التعليم المتقدم في المدرسة الفيضية. كانت المدرسة تضم آنذاك أكثر من 1000 طالب بالإضافة إلى ذلك جلب الحائري إلى المدينة الصغيرة النائمة العديد من تلاميذه ومن بينهم الخميني. وبعد وقت قصير تبعهم عدد كبير من العلماء الإيرانيين الذين كانوا حتى ذلك الحين يدرسون أو يدرّسون في «العتبات» الواقعة في العراق لكنهم رفضوا الاتفاقية العراقية البريطانية التي أبرمها الملك فيصل سنة 1922م مع الإنجليز وأخضع بواسطتها العراق للمصالح البريطانية مما أدى إلى طردهم من البلاد. وهكذا أصبحت قم نقطة تجمع لنخبة معادية للاستعمار من المثقفين الشباب ذوي الاتجاهات الدينية ولكنهم مهتمون بالسياسة أيضاً. وكان لهؤلاء العلماء ولتلاميذهم من بعدهم أكبر الأثر في قيام الثورة الإيرانية بعد عدة عقود.

يعدّ آية الله الحائري المؤسس الحقيقي لـ«الحوزة العلمية» (المركز العلمي) في قم. وكلمة «حوزة» العربية تعني «ملكية»، «قطاع»، «ناحية»، وهي تقابل تقريباً تعبير «كامبوس» (الحرم) في النظام الجامعي الأنغلو ـ أمريكي.

ولقد توسعت الحوزة كثيراً خارج حدود المدرسة الفيضية القديمة وأصبحت تضم العديد من المباني في مختلف أرجاء المدينة. أما المدرسة الفيضية القديمة نفسها فقد جرى توسيعها بعد الثورة وأضيف لها مبنى ثان يحتوي على أربعة أجنحة سكنية. وعلى طرف المدينة نشأت مدرسة جديدة كلياً سميت باسم فاطمة المعصومة المقدسة محلياً، بالإضافة إلى مدرسة أخرى للنساء. وقد ازداد عدد

الطلاب بعد الثورة ازدياداً كبيراً. فبينما كان هناك في عهد الحائري نحو 1000 طالب بلغ العدد عند قيام الثورة سنة 1979 نحو 6000 طالب ووصل في سنة 1993 إلى أكثر من 25,000 طالب. كما أن عدد الطالبات ازداد كثيراً. وجاء كثير من الطلاب من بلدان أخرى. وخلال الحرب العراقية الإيرانية 1980م ـ 1988م قتل 2500 طالب من قم كانوا قد تطوعوا للذهاب إلى الجبهة.

يوجد تحت تصرف الحوزة ملكيات واسعة («وقف»، الجمع: أوقاف) تجعلها مستقلة مالياً عن الحكومة وهي تصر على تأكيد هذه الاستقلالية حتى تجاه القيادة السياسية في طهران التي لا تخلو علاقتها معها من بعض التوتر. وقد تم بعد وفاة الخميني تنظيم الإدارة من جديد؛ منذ ذلك الحين أصبحت إدارة الحوزة في يد «مجلس شورى أعلى» يتألف من ستة أعضاء تنتخبهم الهيئة العامة للجهاز التعليمي ثم يوافق عليهم «مرجع التقليد» والقائد الأعلى للثورة. يقسم المنهاج التعليمي إلى ثلاث مراحل. تسمى المرحلة الأولى «مقدّمات» ويتعلم الطلاب خلالها، إلى جانب مدخل في الفقه الإسلامي، اللغة العربية التي لا بد منها لأنها تشكل لغة العلماء في الإسلام ولأن الجزء الأكبر من المراجع العلمية مكتوب بها ولأن علماء الشيعة في مختلف أرجاء العالم يستعملونها للتفاهم فيما بينهم. تستغرق هذه المرحلة نحو أربع سنوات ـ لا يوجد صفوف محددة وفق قواعد ثابتة ـ وتنتهي بالحصول على شهادة دبلوم. وتسمى المرحلة الثانية «سطح» وتشمل دراسة مبادىء الفقه الإسلامي والفلسفة الإسلامية. تختتم هذه المرحلة بعد خمس سنوات تقريباً بالحصول على شهادة «ليسانس». في المرحلة الثالثة التي تسمى «خارج» يرتدي

الطلاب الجبة والعمامة ويتلقون الدروس التي تؤهلهم ليصبحوا مجتهدين متخصصين، كما أنهم يمكن أن يعطوا دروساً للمستجدين كمساعدي أستاذ. هذه المرحلة الأخيرة من الدراسة غير محدودة الزمن ولا يجري امتحان في نهايتها؛ بل إن الأستاذ المعلم هو الذي يقرر بعد مراقبة دقيقة للطالب ما إذا كان قد أصبح ناضجاً بما فيه الكفاية ثم يمنحه عندئذ «إجازة» لممارسة العمل بصورة مستقلة كمجتهد. وقد جرى في السنين الأخيرة تحديث المناهج التعليمية في الحوزة. فأصبحت اللغة الإنجليزية إلزامية للجميع، وإلى جانب الفلسفة الإسلامية التقليدية صار من اللازم أيضاً الاطلاع على الفلسفات الغربية.

خلال الأعوام الأخيرة تشكل نوع من الترتيب الهرمي داخل طبقة المجتهدين يُعبَّر عنه بالألقاب التي تعطى لهم: اللقب الأول الذي يمكن أن يحصل عليه المجتهد هو «حجة الإسلام والمسلمين» يليه في المرحلة الثانية لقب «آية الله». أما اللقب الأعلى فهو «آية الله العظمى» وهو لقب يقتصر على عدد قليل من الأشخاص هم بصورة عامة المعترف بهم «كمرجع للتقليد». وأما الحصول على هذا اللقب فيحدث بطريقة غير رسمية وغير خاضعة لقواعد شكلية محددة، بل إن المجتهد يحصل عليه ـ عندما يبدي مؤهلات شخصية متميزة ـ من جماعته وأتباعه. وبعد ذلك إما أن يتقبل الناس اللقب ويعترفون به أو لا. ففي هذا الترتيب الهرمي الحديث العهد لم تتشكل حتى الآن طرق محددة للحصول على الشهادات اللازمة لكل لقب.

الأيديولوجيا الثورية الشيعية

إن الشيعة بحد ذاتها غير ثورية. فعلى مدى قرون طويلة كانت ترعى مثال التعبير عن الألم والصبر. كان النموذج السائد للإنسان الشيعي الشهيد الصابر بصمت وليس المتمرد الثائر. صحيح أن الحصول على السلطة الشرعية من قبل الشخص الذي أراده الله ليكون خليفة للنبي ظل الهدف المعلن للشيعة، ولكن هذا المنصب كان مقتصراً على الإمام الغائب نفسه. فحتى عودته في هيئة المهدي المخلّص لم يبق للمؤمنين ما يفعلونه سوى الانتظار والصلاة والأمل. وهكذا كانت الشيعة التقليدية غير سياسية وتميل إلى حياة العزلة والهدوء وكانت منذ قديم الزمان تنظر إلى المشاركة في الحكم بعين الشك والريبة.

ولقد تحدثنا سابقاً عما عاناه علماء الشيعة من تأنيب للضمير عندما عملوا حتى في خدمة حكام شيعة. كما أن علماء الشيعة القياديين في القرنين التاسع عشر والعشرين، أي كبار مراجع التقليد، كانوا ـ ولم يزالوا حتى اليوم ـ بلا استثناء تقريباً شخصيات لا تهتم بالسياسة: الشيرازي (المتوفى سنة 1895)، والحائري، مصلح المدرسة الفيضية في قم، (توفي 1927)، والبروجردي (توفي 1962)، وجامع الكتب مرعشي (توفي 1991)، وآية الله العظمى الخوئي (توفي 1992)، وآية الله العظمى الكلبايكاني (1899 ـ 1993) الذي ظل حتى وفاته يعيش معتكفاً في قم، لم يكونوا يتدخلون في السياسة اليومية إلا بين حين وآخر عندما تمس مصالح رجال الدين أو مصالح الناس الذين يمولونهم كما حدث في النزاع حول احتكار التبغ، أو

في الإصلاح الزراعي الذي أجراه الشاه الأخير وأصاب أيضاً جزءاً من المؤسسات الوقفية. أما الخميني الثوري، «القادم الجديد» بين آيات الله العظمى، فقد كان بسبب برنامجه السياسي ونشاطه مشبوهاً بالنسبة لكثير من زملائه المحافظين. فقد كان يسعى إلى دور كان رجال الدين الشيعة يمقتونه تقليدياً.

وهذا يعني أن تحوّل التقاليد الشيعية إلى إيديولوجيا ثورية هو ظاهرة حديثة تماماً، وهو بالدرجة الأولى من صنع عدد من المثقفين، الذين كان بعضهم ذوي اتجاهات غربية، أي من صنع «العوام» وليس رجال الدين. نذكر هنا في المقام الأول المدرس الطهراني الباحث الشعبي والأديب جلال آل أحمد (1923 ـ 1969) وتلميذه علي شريعتي (1933 ـ 1977) الباحث في علوم الدين والمجتمع. كلاهما كانا متأثرين جداً بتجربة الحكم الاستعماري الأجنبي الذي كان ضحيته الشعب الإيراني المستغل.

في سنة 1907 قسمت روسيا وبريطانيا في معاهدة سرية الأراضي الإيرانية إلى مناطق نفوذ ومصالح لكلٍّ منهما. في الشمال تولى فيما بعد الاتحاد السوفييتي التركة الاستعمارية لحكم الساد بينما حلت على الخليج، بعد الحرب العالمية الثانية، الولايات المتحدة الأمريكية محل بريطانيا العظمى التي تراجعت كقوة استعمارية. وفي سنة 1953 أسقط انقلاب إدارته المخابرات المركزية الأمريكية سي أي إيه نظام الحكم الإيراني الوطني بقيادة رئيس الوزراء محمد هدايت مصدق الذي كان قد أمم النفط الإيراني، وأعاد إلى العرش الشاه محمد رضا بهلوي الذي زاد من ارتباطه بالولايات المتحدة. إن

المقاومة ضد هذا النفوذ الأجنبي هي المصدر الحقيقي لنشوء الشيعة الثورية ولقيام الثورة الشيعية. ويعود السبب في المشاعر الانفعالية القوية المعادية للغرب عند قيام الثورة الإسلامية سنة 1979 إلى تلك الفترة، أي إلى الماضي القريب حيث كانت البلاد واقعة تحت حكم شبه استعماري. إذ لا يمكن تفسيرها استناداً إلى التقاليد الإسلامية بصورة عامة ولا إلى التقاليد الشيعية بصورة خاصة.

كان آل أحمد طالباً يدرس الشريعة وشيوعياً لبعض الوقت لكنه تحول تحت تأثير السياسة الستالينية إلى شخص قومي متحمس ويكره الأجانب. كان يرى أن التقليد الأعمى للغرب هو المسؤول عن ابتعاد الإيرانيين عن قيمهم التقليدية وعن قطع «الجذور» التي كانت ثقافتهم تستمد منها عصير الحياة. بواسطة عنوان لأكثر كتبه شهرة أصبحت كلمة «غرب ـ زدجي»، التي تصعب ترجمتها، ذات شعبية واسعة في إيران: بعضهم ترجمها «مصاب بوباء الغرب» وترجمها آخرون «سكرة الغرب» و«وباء الغرب» وترجمها البعض «أوكسيد نتوزه» وهي مرض مميت حل بالشعب الإيراني. وقد ذكر الخميني في وقت لاحق أنه قرأ هذا الكتاب الذي صدر سنة 1962 بإعجاب كبير. توجه آل أحمد، وهو المثقف اليساري، بحماس شديد إلى التقاليد الدينية ـ على الرغم من أنه لم يتجاوز أبداً كل ما لديه من شكوك تجاهها ـ لأنه رأى فيها المادة الحقيقية الوحيدة المضادة لسموم الوباء الغربي. وذلك لأنه كان يعتقد أن الدين وحده لم يكن قد أصيب بعد بعدوى الطاعون الغربي، وبما أن الجماهير الواسعة من الإيرانيين البسطاء متمسكة بتقاليدها الدينية شعر بحسّه الغريزي الأكيد بأنه يوجد هنا طاقة ثورية كامنة أكبر بكثير من طاقة الأفكار الماركسية التي تأثر بها

الطلاب والمثقفون، ومن طاقة العمال في حقول النفط الذين لم يكن عددهم كبيراً بأي حال.

كان تأثير كتب آل أحمد على جيل كامل من الإيرانيين، بمن فيهم رجال الدين وطلاب الشريعة، كبيراً إلى أبعد الحدود. بعد وفاة آل أحمد في سنة 1969 تبنى أفكاره في السبعينيات علي شريعتي وقام بتعميقها. ينحدر علي شريعتي، مثل أستاذه وقدوته آل أحمد، من أسرة شديدة التدين، كان أبوه خطيباً في أحد الجوامع ونشأ هو نفسه عند الضريح المقدس في مشهد. لكنه درس بعد ذلك علوم الدين والاجتماع في باريس (1960 ـ 1965) وحصل من جامعة السوربون على شهادة الدكتوراه في فقه اللغة الإيرانية. تحت تأثره بكارل ماركس، وماكس فيبر، وجان بول سارتر، وهربرت ماركوزه، ثم فرانتس فانون الذي كان مقروءاً جداً آنذاك وكان يعتبر «نبي المنبوذين» والذي قام بترجمة كتابه «معذبو الأرض» إلى اللغة الفارسية، طوّر علي شريعتي أيديولوجيا خاصة به دمج فيها الأفكار الغربية مع التقاليد الشيعية الإيرانية. بعد عودته إلى إيران عمل معلماً في قرية في شرق إيران وبعد ذلك معيداً في جامعة مشهد. لكنه فُصل من الجامعة بسبب أفكاره فذهب إلى طهران حيث كان من عام 1969 حتى عام 1973 يلقي محاضرات في «حسينية الإرشاد» وهي أكاديمية دينية خاصة أغلقها الشاه سنة 1973. بعد اعتقاله وتعذيبه في السجن وضع تحت الإقامة الجبرية ثم تمكن أخيراً سنة 1977 من مغادرة إيران لكنه توفي في نفس السنة في لندن.

شيعية شريعتي غير أورثوذوكسية (غير أصولية) بالمعنى الذي

يتبناه رجال الدين المحافظون. بل هي في الحقيقة أيديولوجيا ثورية حديثة مغلفة برداء من الصور والرموز الشيعية التقليدية التي حصلت على تفسير مختلف كلياً وعلى تقييم جديد. فالشيعة هنا تعني النضال في سبيل العدالة وضد الحكم الأجنبي والاستبداد والإقطاع والاستغلال. وفي اللحظة التي تحالفت فيها الشيعة مع القوى الدنيوية الحاكمة خانت الرسالة التي أرادها لها الله. ويرى شريعتي أن هذه الخطيئة الكبرى تكمن في قيام الدولة الصفوية سنة 1501م. ذلك أن مجد الشيعة كان يتمثل حتى ذلك الحين في معارضتها لجميع الأسر الحاكمة التي أقامت باسم الإسلام ممالك طاغية. وتبدو له الشيعة قبل العهد الصفوي أنها «**مصدر تمرد ونضال الجماهير المسحوقة وخاصة سكان الريف**». ولكن بعد ذلك «**جاء الصفويون... فأصبحت الشيعة الحمراء شيعة سوداء. وأصبح دين الشهادة دين النواح والحسرة**».

«الشيعة الحمراء» هي الشيعة «العليّة [العلوية]» أي شيعة الإمام الأول علي، الشيعة الأصلية النقية الحقيقية وغير المزورة، شيعة الفعل الثوري والنضال ضد الطغيان والاستغلال. أما «الشيعة السوداء»، والمسماة أيضاً «الشيعة الصفوية»(1)، فهي شيعة الاتفاق مع الأقوياء والمستغلين والقامعين؛ فهي شيعة خانت الرسالة الثورية بأن وضعت مكان النضال والشهادة النواح الخالي من كل فعل في مواكب عاشوراء والبكاء على قبور الأئمة. وكان شريعتي يحتقر طقوس شهر محرم التقليدية مع ما يرافقها من لطمٍ ومآتم التعزية كما

(1) يوجد كتاب اسمه التشيع العلوي والتشيع الصفوي للكاتب علي شريعتي [الناشر].

يحتقر المجادلات التي لا تنتهي بين رجال الدين حول حرفية النصوص وتفسيراتها.

كان يحلم بـ«إسلام بلا رجال دين». إذ إن الملالي وآيات الله مع مجلداتهم الضخمة القروسطية، ومع كل المراجع الشرعية والتعليقات والتعليقات على التعليقات، كانت تبدو له عائقاً في وجه المعرفة والتقدم والفعل الثوري. وإلى كتاب شريعتي «الشهادة» يعود الشعار الذي كان خلال الثورة يكتب على اللافتات التي تحملها جموع المتظاهرين: «كل أرض هي كربلاء، وكل شهر هو المحرم، وكل يوم هو عاشوراء». هذا الشعار الثوري يتعارض كليّاً مع جميع المفاهيم التقليدية التي ترى أن عاشوراء ليس كل يوم وإنما فقط يوم العاشر من محرم.. ففي اليوم الحادي عشر يستلقي الشيعي التقليدي في بيته معصوب الرأس وفي اليوم الثاني عشر يعود إلى البازار لعرض بضاعته للبيع. فالتضحية الرمزية بالذات التي تحولت إلى شعائر تمارس يوم عاشوراء، والتي شكلت الخطوة الحاسمة نحو نشوء الشيعة (انظر الصفحة 38 أعلاه)، يتم التراجع عنها هنا: هنا تنزع عن التضحية بالذات صفة الشعيرة الطقسية؛ فالتصرف التعويضي الطقسي الذي يؤدى مرة في السنة بالتضحية بكمية قليلة من الدم لم يعد كافياً الآن؛ كل يوم هو الآن عاشوراء، وكل أرض هي كربلاء. الآن أصبحت الشهادة في سبيل الثورة (وفي وقت لاحق في الحرب ضد المعتدي العراقي) مطلوبة فعلاً؛ الآن أصبح الموت مسموحاً ومطلوباً فعلاً.

إلى جانب نزع الصفة الطقسية عن التضحية بالذات يتم أيضاً

التخلي عن فكرة انتظار المهدي وقيام القيامة. خلال فترة وجود الأئمة كان الله قد أعطى البشر قادتهم. ولكن منذ غياب الإمام الثاني عشر فإن الله يطلب من البشرية جمعاء أن تعمل بالنيابة عن الإمام الغائب وأن تقيم مملكة العدالة ليس في يوم ما من الأيام وإنما الآن وهنا. إذ إن شريعتي ينادي قراءه قائلاً: «**اختاروا لأنفسكم نيابةِ الإمام لكي يكون لكم قائد مسؤول**». وبذلك ينتفي الدور المتميز لرجال الدين وللمجتهدين المختصين. إذ إن الشعب نفسه هو الذي سيقيم مملكة المهدي. أما المؤسسات الوقفية فيجب الاستفادة منها في «النضال السياسي الاجتماعي وفي مجال التربية والتعليم». وأما المرجعيات الدينية فيجب أن توضع في خدمة الحركة الثورية. كما أن التقليد التقليدي سيخدم في المستقبل الانضباط الثوري، والممارسة الشيعية المسماة «التقية»، أي نكران العقيدة الشيعية في أوقات الملاحقة، يتحول معناها ليصبح النشاط السري للكادر الثوري.

مثل جميع الأيديولوجيات الإسلامية في القرن العشرين يقدم شريعتي صورة عن الإسلام خيالية وغير تاريخية (أي صالحة لكل الأزمنة). فهو يعتبر أربعة عشر قرناً من التاريخ الإسلامي بمثابة السير في طريق ضالة. إذ يضع مكان ما أصبح تاريخياً صورة عصر ذهبي يتمثل في المرحلة التي عاش فيها النبي وفاطمة وعلي والأئمة. وهو يقول صراحة: «**الشيعة لا يقبلون الطريق الذي سلكه التاريخ**». ويضيف: «**إن الإسلام الحالي (1972م) إسلام إجرامي في عباءة التقاليد، أما الإسلام الحقيقي فهو الإسلام الغائب الذي يرتدي العباءة الحمراء، عباءة الشهادة**».

إن نزع الصفة الطقسية عن تصورات عاشوراء والتخلي عن فكرة انتظار المهدي وقيام القيامة يشكلان الخطوتين الحاسمتين نحو تحوّل المذهب الشيعي التقليدي إلى عقيدة (إيديولوجيا) ثورية.

أما الأبوان الروحيان لهذا التحول فهما آل أحمد وعلي شريعتي. ولقد طبق الخميني خلال فترة حكمه فيما بعد بعض أفكارهما وإن كان قد رفض بشدة تهجمهما على رجال الدين التقليديين. إلا أن الثورة اتخذت مساراً آخر مختلفاً تماماً عما حلم به آل أحمد وعلي شريعتي وكثير من أنصارهما. فقد أخطأ جداً في تقدير وزن رجال الدين وهكذا تجاوزهما التطور بسرعة كبيرة. غير أن أفكار شريعتي لم تزل حية في حركة المعارضة اليسارية «مجاهدي خلق» المعادية لرجال الدين.

الخميني و«ولاية الفقيه»

ليس للثورات أسباب دينية وإنما تنجم عن أزمات اقتصادية واجتماعية وسياسية. ومن أجل تحليلها يحتاج المرء إلى الأدوات المنهجية التي يستعملها عالم الاجتماع وعالم السياسة ـ وبمسافة زمنية متزايدة ـ المؤرخ. وينطبق هذا على الثورة الإيرانية كما ينطبق على جميع الثورات الأخرى التي حدثت في القرنين الأخيرين. أما أن تكون الثورة الإيرانية قد استمدت شرعيتها من أيديولوجيا ذات صبغة دينية فهذا أمر فاجأ كثيراً من المراقبين الغربيين وأدى إلى الحكم الخاطىء المنتشر على نطاق واسع وهو أن الثورة هي محاولة للعودة إلى العصور الوسطى.

لقد أدت الثورة السياسية في إيران إلى إحداث ثورة أيضاً في

العقيدة الشيعية ذاتها وإلى حدوث تغيرات جوهرية ولكن لم يزل من غير المؤكد ما إذا كانت ستستمر على المدى الدائم أم لا. وأهم هذه التجديدات المبدأ الذي طوره نظرياً الخميني ثم تم تطبيقه في الممارسة الثورية ألا وهو مبدأ «ولاية الفقيه»الذي أصبح المبدأ الأساسي لجمهورية إيران الإسلامية ونص عليه دستورها الأول.

ولد روح الله الموسوي الخميني سنة 1902م في خمين (120كم جنوب غرب قم). وهو من أحفاد الإمام السابع موسى الكاظم ومن هنا جاءت الكنية الموسوي. في سنة 1918م أصبح في أراك القريبة تلميذ آية الله حائري ثم تبعه سنة 1922 إلى قم حيث اكتسب في الثلاثينيات لقب مجتهد وأصبح مدرساً في المدرسة الفيضية. وكان أول ظهور له كمؤلف عندما كتب سنة 1943 بناء على إلحاح بعض تجار البازار في طهران رداً على هجمات المثقفين العلمانيين المعارضين لرجال الدين. يعتبر الكتابُ، الذي صدر تحت عنوان «كشف الأسرار»، الدينَ الضمانةَ الوحيدة لاستقلال البلاد ويعتبر العلماء الحصن المنيع ضد السياسة التي يتبعها الشاه والمتمثلة في بيع المصالح الإيرانية للقوى الأجنبية. ووجَّه الخميني في كتابه الأول هذا انتقاداً حاداً للشاه رضا الذي كان قد سقط قبل ذلك بعامين، لكنه كان يأمل في أنه سيستطيع التأثير إيجابياً على ابنه وخليفته الشاب محمد رضا بهلوي. ولم يهاجم الخميني في الكتاب النظام الملكي بالحدة التي هاجمه بها فيما بعد لا بل إنه تبنى الموقف الشيعي التقليدي في مسألة تعاون رجال الدين مع الحكم الدنيوي المغتصب من حيث المبدأ: طالما كان التعاون مع المغتصب في مصلحة المسلمين فهو مسموح، لا بل وإلى حدود معينة مطلوب.

يجب على العلماء، بالدرجة الأولى، أن يدعموا الحاكم في مهمة الدفاع عن البلاد ضد النفوذ الأجنبي والهجمات الأجنبية. يتحدث الكتاب في المقام الأول عن الدور الذي يؤديه العلماء والفقهاء في الدولة ويقول: **بما أنهم الوحيدون الذين يعرفون الشريعة فهم وحدهم القادرون على التقرير ما إذا كانت تصرفات الحكومة شرعية أم لا.** يستند الخميني هنا إلى التقليد الذي نصت عليه المادة الثانية من ملحق الدستور الإيراني لعام 1907م التي أخضعت التشريعات التي يسنُّها البرلمان لرقابة لجنة من الفقهاء المسلمين. آنذاك لم يكن هناك أي حديث بعد عن تولي رجال الدين السلطة بصورة مباشرة. كان المطلوب فقط مراقبة الملك وموظفيه. وكان الذي يتولى هذه المهمة رجال الدين كهيئة جماعية. لم يكن أحد يفكر بـ«قائد» كارسماتي يتمتع بمؤهلات خاصة.

إلا أن موقف الخميني ازداد تطرفاً بسرعة كبيرة تحت تأثير السياسة التي اتبعها الشاه محمد رضا بهلوي. فقد أصبح من ألدِّ خصوم الملك والنظام الملكي. وتركزت مقاومته بشكل خاص على الإصلاحات التي كان الشاه يريد إقرارها في استفتاء شعبي سنة 1963م تحت اسم «الثورة البيضاء». وكان الإصلاح الزراعي يشكل أهم نقطة في هذا البرنامج الإصلاحي. جميع أولئك الذين تضررت مصالحهم بهذا البرنامج ـ ومن بينهم عدد غير قليل من رجال الدين ومموليهم ـ وجدوا في الخميني معارضاً صلباً لا تلين له عريكة. وقد دفع القمع الذي مارسه نظام الشاه طلاب قم إلى الثورة على النظام. فحدثت في عاشوراء 1963 الخامس من يونيو(حزيران) اضطرابات قمعت بالحديد والنار. وفي أكتوبر/ تشرين الأول من العام التالي

وقف الخميني علناً ضد عزم الشاه على منح المستشارين العسكريين الأمريكيين الكثر، الذين كان قد جلبهم إلى البلاد، صفة دبلوماسية. آنئذ ظهرت بكل جلاء دوافعه الثورية وبرز موقفه المعادي للاستعمار. أما سر نجاحه فكان يكمن في أن كثيراً من المثقفين الشباب كانوا يشاركونه آراءه وكانوا معجبين بصلابة مواقفه التي لا تقبل المساومة.

وكان الخميني قد تجرأ على وصف الشاه علناً بأنه «يزيد عصرنا» وهذه إشارة واضحة ومفهومة لكل شيعي أينما كان. إذ إن الخليفة الأموي يزيد بن معاوية هو المسؤول عن مجزرة كربلاء. على أثر ذلك اعتُقل الخميني ثم أُبعد إلى تركيا لكنه ما لبث أن توجه في اكتوبر/ تشرين الأول 1965 إلى العراق واستقر عند الأماكن المقدسة في النجف حيث التفّ حوله مجدداً مجموعة من التلاميذ وصار يلقي الخطب والمواعظ أمام الزوار الإيرانيين. كانت الأشرطة المسجلة التي تتضمن خطبه تنتشر على نطاق واسع. وفي النجف نشأ كتابه الثاني «الحكومة الإسلامية» الذي استند إلى سلسلة من المحاضرات كان قد ألقاها أمام تلاميذه في يناير/كانون الثاني وفبراير/ شباط 1970م. وإذا ما تركنا ما احتواه الكتاب من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال الأئمة جانباً فإن ما يتبقى ليس سوى خطاب هجومي معادٍ للاستعمار. وكان غضب الخميني المعادي للاستعمار ـ مثل غضب غالبية رجال الدين من أبناء جيله ـ ينصبُّ بالدرجة الأولى على البريطانيين بسبب السياسة التي اتبعوها في إيران والعراق قبل الحرب العالمية الثانية لكن هذا الغضب انتقل بكل سهولة إلى الأمريكيين الذين أصبحوا بعد الحرب حراس المصالح الغربية في منطقة الخليج. يشير الكتاب بكل وضوح إلى أن الخميني يريد التخلي عن فكرة

الزهد الشيعية وعن توجه أنظار الشيعة إلى العالم الآخر ويوم القيامة: **يجب أن يحل الفعل الثوري محل الاستسلام انتظاراً لعودة الإمام الغائب**. وبناء على ذلك أصبح الحكم الملكي يعد حكماً معادياً للإسلام لا بل ومخالفاً لإرادة الله. ولا يقتصر هذا الحكم على نظام الشاه محمد رضا بهلوي وحده بل يشمل النظام الملكي بحدِّ ذاته أينما كان. وهكذا يصبح أيضاً كفاح الحسين في كربلاء كفاحاً ضد مبدأ الحكم الملكي غير الإسلامي. فقد كان في وسع الإمام الحسين مبايعة الخليفة الأموي والاعتراف بالأسرة الحاكمة لكنه لم يقبل بأي مساومة بل فضّل التضحية بنفسه في المعركة لكي يكون قدوة للأجيال اللاحقة. أما الوقوف مكتوفي الأيدي بانتظار عودة الإمام الثاني عشر فلن يؤدي إلا إلى الفوضى. ولذلك يجب أن تتولى مهمة إقامة المملكة العادلة بالنيابة عن الإمام الغائب «حكومة الخبراء» أو ما يسمى «ولاية الفقيه» أي ولاية الشخص المؤهل الذي يعرف الوحي الإلهي والإرادة الإلهية. حتى الآن كان العلماء والفقهاء ـ وهما تعبيران مترادفان ـ يطالبون في أحسن الأحوال بمراقبة الإجراءات التي تتخذها الحكومة. كانوا يريدون فقط مراقبة الذراع الدنيوية ولفت انتباهها عند اللزوم. إلا أن كلمة «ولاية» تعني «ممارسة الحكم». أي أن المبدأ الجديد الذي صاغه الخميني يعني تولي رجال الدين الحكم بصورة مباشرة في حال عدم وجود حكومة إسلامية على رأس البلاد. وبهذا المبدأ الجديد لم يحدث الخميني ثورة في الدولة الإيرانية فحسب بل وأيضاً في الشيعة التقليدية بكاملها.

القائد الثوري

تلتصق شخصية القائد الكاريسماتي الذي لا يخطىء التصاقاً وثيقاً بصورة الثورة في القرن العشرين، ابتداءً بلينين وحتى ماوتسي تونغ وكاسترو وغيرهم. وهكذا فإن المكانة البارزة لآية الله الخميني لا تنبع من التقاليد الدينية للشيعة وإنما من دوره كرجل ثوري. ولقد ساهم في ذلك التوجهات التي كانت مطروحة منذ القرن الماضي والتي ترمي إلى تشكيل قمة على رأس التسلسل الهرمي لرجال الدين الشيعة. وهكذا كان من الممكن توظيف هذه الفكرة لخدمة الثورة عن طريق الاعتراف مؤقتاً بآية الله عظمى وحيد ليكون مرجعية عليا يعترف بها الجميع أي ليكون «مرجع التقليد». إلا أن الصيغة التي حدث بها هذا الاعتراف كانت جديدة كليّاً، شأنها شأن الهالة المطلقة التي استطاع قائد الثورة إحاطة نفسه بها.

لقيت سمعة الخميني كخصم عنيد للشاه اعترافاً لدى جميع فئات المعارضة بدءاً باليساريين مروراً بالليبراليين من أبناء الطبقة الوسطى والعوام ذوي الميول الدينية وحتى مختلف فئات رجال الدين من معتدلين ومتطرفين على حدٍّ سواء. بدأت الثورة عندما طالب السياسي الليبرالي شاهبور بختيار، المنتمي إلى الجبهة الوطنية التي أسسها مصدق، في صيف 1977 بإحياء الدستور الإيراني لعام 1906/ 1907م. بعد ذلك نزل طلاب الشريعة في قم وغيرها من المدن إلى الشوارع للتعبير عن سخطهم. ولما أطلق الجيش في 8 سبتمبر/ أيلول 1978م النار على مظاهرة جماهيرية وقتل مئات الأشخاص أصبح إسقاط نظام الشاه بالقوة أمراً لا مفرَّ منه ولا سبيل

لإيقافه. وكان الخميني، الذي كان يعيش في المنفى في النجف، يتابع الأحداث ويحاول توجيهها. ولكن بعد شهر من ذلك التاريخ طُرد من العراق بناء على طلب الشاه، فاستقر في «نوفله لوشاتو» الفرنسية الواقعة على بعد 30 كيلومتراً غرب باريس وبدأ منذئذٍ يدعو علناً إلى إلغاء النظام الملكي وإقامة الجمهورية الإسلامية استناداً إلى مبدأ «ولاية الفقيه». وفي 12 ديسمبر/ كانون الأول 1978 قامت بعد مسيرات عاشوراء مظاهرة جماهيرية تبنَّت هذا المطلب. وفي 16 يناير/ كانون الثاني 1979 غادر الشاه البلاد بعدما كلف السياسي الليبرالي المعارض شاهبور بختيار بتشكيل الحكومة. لكن الثورة كانت أسرع. ففي أول فبراير/ شباط هبطت طائرة الخميني في طهران وقام المهندس مهدي بزركان، وهو غير معمم شديد التدين، بتشكيل حكومة ثورية مؤقتة. عندئذ تنازل بختيار وغادر البلاد. وبعد شهر واحد من وصوله إلى إيران استقر الخميني في قم.

في دستور الجمهورية الإسلامية، الذي أُقر في استفتاء شعبي في الثاني والثالث من ديسمبر/ كانون الأول 1979، لا تعطى السيادة للشعب وإنما للّه وحده (المادة 56). والإمام الغائب هو ممثل الله الشرعي الوحيد على الأرض. «**خلال فترة غياب الإمام الثاني عشر ـ عسى الله يعجل في عودته! ـ يكون زمام الحكم وإمامة الأمة في يد الفقيه العادل التقي، المطلع على شؤون العصر، الشجاع المؤهل للقيادة والتوجيه. الذي تختاره غالبية السكان لتولي القيادة**» (المادة الخامسة). ونصت المادة 107 بالاسم على أن «آية الله العظمى الخميني» هو القائد الحالي. «**في حال عدم حصول فقيه إسلامي على مثل هذه الأغلبية يتولى القيادة استناداً للمادة السابعة**

«مجلس شورى قيادي» مؤلف من فقهاء إسلاميين يلبون الشروط الواردة أعلاه» (المادة الخامسة). **وهناك إلى جانب «القائد» أو «مجلس القيادة» «مجلس الحراس» الذي يتألف من ستة علماء دين وستة حقوقيين دنيويين ومهمته التأكد من أن جميع القوانين التي يقرها البرلمان مطابقة لنظام الحياة الذي أراده الله وأوحى به إلى رسوله** (المادة الرابعة). **وهذه صيغة جديدة للمادة الثانية من ملحق دستور عام 1907. الدين الرسمي لجمهورية إيران الإسلامية هو الإسلام حسب المذهب الشيعي الاثني عشري (الجعفري). وتعترف الدولة دون أي قيود أو تحفظات بـ«المدارس» السُّنية الأربع** (المادة 12). **«المواطنون الإيرانيون الذين يدينون بالمسيحية أو اليهودية أو الزرادشتية معترف بهم رسمياً كأقليات دينية»** (المادة 13). **هؤلاء هم «الذميّون» التقليديون في الشرع الإسلامي الكلاسيكي الذي يتمتعون بالحماية الكاملة. أما الذين لم يرد لهم ذكر فهم الجماعات الدينية المنبثقة عن الشيعة نفسها كالشيخيين والبابيين والبهائيين والذين يعتبرون مرتدين ويتعرضون لهذا السبب للملاحقة.**

لا يمكننا هنا عرض مجريات الثورة بالتفصيل. ويكفي أن نشير إلى أنّ الخميني وأتباعه المقربين نجحوا في القضاء على الأجنحة الأخرى للمعارضة واحداً تلو الآخر. فقد تم عزل وإسقاط رئيس الوزراء الأول بزركان ورئيس الدولة الأول بني صدر ـ كلاهما غير معممين من المعسكر المتديِّن. ثم جاءت الحرب ضد العراق (1980 ـ 1988) لتعزز مكانة الخميني وترسخها.

لا يوجد في الشيعة التقليدية مثال لمنصب القائد. بل إن هذا

المنصب تجديد ثوري بحت. فعن طريق الاستفتاء الشعبي على الدستور ـ وهذا شيء جديد أيضاً ـ حصل الخميني بحكم الأمر الواقع على منصب «الإمامة»؛ فالمادة الخامسة من الدستور تتحدث صراحة عن «إمامة الأمة» وهي منصب يتولاه القائد بالنيابة عن الإمام الغائب. صحيح أن الخميني نفسه لم يسمّ نفسه أبداً «إمام» لكنه كان يلعب دور نوع من الإمام رقم 11 ب إن صح التعبير. وقد رفع أنصاره توجيهاته، التي كان يمارس بواسطتها بصورة غير رسمية تأثيره على الأحداث السياسية، إلى مرتبة تقترب من العصمة. وإذا ما كانت هذه التوجيهات ذات الصلة بالحكم تصدر تحت الاسم التقليدي «فتوى» فإن هذا يجب ألا يحجب عن ناظرنا أن الأمر هنا أيضاً يتعلق بشيء مختلف نوعيّاً وجديد كليّاً. إذ إن الفتوى التقليدية هي مجرد رأي شخصي يبديه أحد الفقهاء ويستطيع فقيه آخر نقضه بكل بساطة. كما أن الناس غير ملزمين بالتقيد بفتوى معينة. أما توجيهات القائد فهي إلزامية وتستوجب الطاعة المطلقة. وبهذه الصفة وجه الخميني في 14 فبراير/ شباط 1989 نداء لقتل الكاتب البريطاني سلمان رشدي، مؤلف كتاب «آيات شيطانية»، لكن القيادة السياسية الإيرانية تنصلت فيما بعد من هذه الفتوى[1].

بعد وفاة الخميني في 3 يونيو/ حزيران 1989م أكد أتباع الخميني الثوريون بصورة أكثر حسماً تمتعه بما يشبه العصمة. ومما يعبر بشكل خاص عن مكانته التي تقترب من مكانة الإمام. ضريحه الموجود جنوب طهران والمزود بقبة معدنية مطلية بالذهب وبمآذن فولاذية تكاد تكون نسخة عن ضريح الإمام الحسين في كربلاء ـ وبأبعاد أكبر.

الاجتهاد ومثال تحديد النسل

من الناحية النظرية لا يختلف وضع قائد الثورة عن وضع المجتهد التقليدي: فهو يصدر قرارات بعد التفكير وبذل الجهد (الاجتهاد) وحسب ما لديه من علم وما يمليه عليه ضميره. وكيف يحصل هذا في كل حالة على حدة فمن الممكن توضيحه استناداً إلى مثل تحديد النسل. من المعروف أن التزايد السكاني السريع يضع إيران وكثيراً من بلدان العالم الإسلامي أمام مشاكل في غاية الصعوبة. فبينما كان عدد السكان لا يزيد في سنة 1963م على 22 مليوناً أصبح في سنة 1979 34 مليوناً. خلال الأعوام 1980 ـ 1990 كان معدل النمو السكاني 3,6 بالمائة وهذا يعني أن عدد السكان كان يزيد كل سنة أكثر من مليون نسمة. في سنة 1990 كان عدد سكان إيران 57 مليون نسمة وفي سنة 2003 وصل إلى 66,6 مليون نسمة.

في إيران، كما في جميع البلدان الإسلامية الأخرى، تعتبر كثرة الأولاد بركة من الله؛ ولذلك يتخذ معظم الناس موقفاً متحفظاً تجاه وسائل منع الحمل وتحديد النسل، وينطبق الشيء نفسه على غالبية علماء الدين الشيعة.

دفعت مشكلة التزايد السكاني وزير الصحة الأول في جمهورية إيران الإسلامية وفي نفس العام الذي قامت فيه الثورة، أي عام 1979، إلى توجيه سؤال للقائد الخميني عما إذا كان من المسموح استعمال وسائل منع الحمل. اتخذ الخميني قراراه شكلياً كما يفعل أي مجتهد كلاسيكي. ونشرت نتيجة اجتهاده في وسائل الإعلام

الإيرانية ثم أُعيد نشرها فيما بعد مراراً وتكراراً. وفي الوقت نفسه
عملت الصحافة على عرض المبدأ الذي استند إليه القرار. وكان قرار
الخميني قد نصَّ على أن «**استعمال وسائل منع الحمل مسموح دينياً
على شرط ألا يسبب ضرراً صحياً للنساء وأن يتم بموافقة الزوج. فإذا
ما أراد الأزواج الإيرانيون أن تكون لديهم أسرة صغيرة فليس هناك ما
يمنع ذلك. إذ إن القرآن الكريم لا يحتوي على أي نص يمنع تخطيط
الأسرة أو وسائل منع الحمل. بل بالعكس هناك العديد من الآيات
التي لا علاقة لها بصورة مباشرة بتخطيط الأسرة ونزلت على النبي
محمد في سياق آخر ولكن يمكن إيجاد صلة بينها وبين تخطيط
الأسرة. فقد جاء في الآية 233 من سورة البقرة قوله تعالى:**
﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ
لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا
وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا
وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا
سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. **إن
التطبيق الصارم للتوصية الواردة في الآية المذكورة بخصوص إرضاع
الولد عامين كاملين هو بحدِّ ذاته نوع من منع الحمل لأنه يقلل من
إمكانية حدوث حمل جديد بعد وقت قريب. ولذلك فإن التقيد
بالتوصيات المذكورة يؤدي إلى تراجع الخصوبة وإلى نشوء فواصل
زمنية كبيرة بين الولادات. وهناك علماء مسلمون آخرون يفسرون الآية
المذكورة بمعنى أوسع. فهم يرون أن النص القائل:** ﴿...لَا تُضَآرَّ
وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ... ﴿٢٣٣﴾﴾ **هو دليل آخر على أن تخطيط
الأسرة مسموح. ويقول بعض العلماء استناداً إلى سورة البقرة إن**

حمل المرأة غير جائز إلا بعدما تصبح مهيأة جسدياً لذلك، ومن الناحية الأخرى لا يجوز أن يمنع الطفلُ الأُمَّ من أن تعيش حياة مريحة كريمة. بالإضافة إلى ذلك يجب أن يكون لدى الأب الدخل اللازم لتوفير المستلزمات المعيشية لطفله. وهكذا يمكن القول إن تأييد الإسلام من الناحية المبدئية لمزيد من الأولاد لا يصلح لجميع الأزمنة بل يمكن إخضاعه للشروط النفسية والجسدية والاقتصادية للأهل. ولقد ناقش الحقوقيون والعلماء المسلمون تطبيق الطرق المختلفة لمنع الحمل واتفقوا بصورة عامة على أن جميع الطرق التي لا تضر المرأة مسموحة».

يتبيَّن من هذا المثال لاجتهاد كلاسيكي مدى المرونة التي يتمتع بها من حيث المبدأ الشرع الشيعي ومدى ما لديه من قدرة عالية على التكيف. ونذكر في هذا الصدد، على سبيل المثال أيضاً، الفتوى الأولى التي أصدرها علي خامنئي، خليفة الخميني، والتي أجازت زرع الأعضاء المأخوذة من أشخاص ماتوا دماغياً. وهذا يعني أن طريقة الاجتهاد لا تؤدي بالضرورة إلى تعزيز المواقف المحافظة أو الرجعية. بل يمكن أن تكون أيضاً أداة للتحول. فالأمر يتوقف فقط على الشخص الذي يستعمل هذه الأداة وعلى العقلية التي يتعامل معها بها.

خليفة المرشد الأعلى

كانت سلطة الخميني مطلقة وغير محدودة؛ كانت كلمته هي القانون. وقد اضطر الرئيس الإيراني آنذاك علي خامنئي، الذي خلف الخميني فيما بعد، إلى الرد على النقاد بقوله: «**إن القول بأن الفقيه**

يتصرف حسب مصلحته الخاصة وبأنه دكتاتور هو تفسير مضلل فمن يتصرف بتكليف من الله ليس دكتاتوراً».

خلافاً للحكام المطلقين الآخرين ذوي المناصب المشابهة قام الخميني نفسه بتسوية مسألة خلافته في وقت مبكر. وكان هو نفسه قد أصبح قائداً للثورة بموجب الاستفتاء على الدستور سنة 1979، أي أنه لم ينتخب انتخاباً وإنما تثبيتاً. ومن أجل انتخاب خليفته نص الدستور في المادتين 107 و108 على هيئة من الخبراء تحدد طريقة تشكيلها وعدد أعضائها بقانون. قامت هذه الهيئة المؤلفة من 61 مجتهداً (وفي وقت لاحق 74)، منتخبين لمدة ثمان سنوات، سنة 1985 باختيار تلميذ الخميني سابقاً آية الله حسين علي منتظري ليكون المرشد الأعلى (رهبر) المقبل. ولكن بما أن منتظري لم يدعم بشكل كامل الخط المتشدد للخميني فقد تم التخلي عنه في مارس/آذار 1989 واضطر إلى الاستقالة. لم يجر بعد ذلك اختيار خليفة جديد، لكن الخميني شكّل بعد شهر واحد لجنة لتعديل الدستور. غير أن الدستور المعدل لم يدخل حيز التنفيذ إلا بعد وفاة الخميني (في 3 يونيو/ حزيران).

شملت التعديلات الجوهرية للدستور الجديد منصب رئيس الدولة ومنصب المرشد الأعلى (الرهبر). فتم إلغاء منصب رئيس الوزراء وتولى رئيس الدولة إدارة الحكومة وحصل بذلك على مركز أقوى بشكل واضح. لكن التعديلات الأهم كانت تلك المتعلقة بدور القائد الأعلى للثورة. كان بزركان رئيس الحكومة الثوري الأول لجمهورية إيران الإسلامية قد وصف مبدأ «ولاية الفقيه» بأنه

عباءة مفصلة على قياس الخميني فقط. ومن الواضح أن الخميني نفسه كان يرى الأمر كذلك. فقد سعى في أعوامه الأخيرة إلى وضع توصيف جديد لمؤهلات القائد المقبل. وكان هو نفسه قد جمع في آن واحد بين القائد السياسي والقائد الديني أي «مرجع التقليد». وكان الدستور القديم قد نص في المادة 105 على ذلك («المرجعية والرهبرية»). غير أنه كان من الصعب جعل هذا الدمج للمنصبين المفصل على قياس الخميني شرطاً، في المستقبل أيضاً، لمنصب قائد الثورة. إذ إن مكانة المرجع لا يحصل عليها المرء عادة إلا في مرحلة متأخرة من العمر: غالبية المراجع يزيد عمرهم على ثمانين أو تسعين سنة. علاوة على ذلك فقد كان معظمهم علماء دين لا يهتمون بالسياسة وكان عدد غير قليل منهم يتخذ موقفاً متحفظاً، وأحياناً رافضاً، تجاه الخط الثوري للخميني. ولذلك دعا الخميني نفسه إلى الفصل في المستقبل بين منصب «المرجعية الدينية» ومنصب قائد الثورة. فقد جاء في رسالة موجهة إلى أعضاء اللجنة المشكلة لتعديل الدستور قوله: «**كنت منذ البداية أرى، وأصر على ذلك، أن «المرجعية» لا يجوز أن تكون شرطاً لمنصب القائد. . . . وكنت أعرف منذئذٍ (أي عند وضع الدستور الأول، المؤلف) أن هذا الشرط لا يمكن تحقيقه. ولذلك أرى أنه يكفي تماماً أن يتم اختيار مجتهد عادل (كقائد) توافق عليه هيئة الخبراء وتكون قراراته ملزمة**».

لقيت توصية الخميني بعض الاعتراضات داخل اللجنة. كان البعض يعترضون على عودة القرار الديني إلى عدة مرجعيات يستند مركزها غير الرسمي إلى الاعتراف العفوي بها من قبل أتباعها

وبالتالي لا يكون للحكومة أي تأثير عليها ولا تستطيع مراقبتها. لكن الإعتراض الأكبر كان على منصب القائد (الرهبر): إذا ما كان القائد مجرد مجتهد بسيط فيكون في وسع أي مرجع معارضة تعليماته بإصدار فتوى ضدها. ومن الممكن أن يصبح المرجع بسهولة بوقاً للجماعات المعارضة لا بل وربما دمية في يدها. إلا أن الخميني فرض في النهاية وجهة نظره. فقد جاء في الدستور المعدل أن القائد لا يجب أن يكون حائزاً حتماً على مرتبة المرجع. كما أن انتخاب القائد من الشعب الإيراني لم يعد وارداً في الدستور الجديد.

أصبحت قضية الخلافة ملحة قبل الانتهاء من تعديل الدستور. إذ توفي الخميني في الثالث من يونيو/ حزيران 1989. في اليوم التالي اجتمعت هيئة الخبراء وانتخبت بستين صوتاً مقابل 14 رئيس البرلمان السيد علي خامنئي (مواليد 1940) قائداً مؤقتاً. وبعد دخول الدستور المعدل حيز التنفيذ تم تثبيته في المنصب. كان خامنئي مجتهداً ولكنه لم يكن يحمل سوى لقب «حجة الإسلام» أي أنه لم يكن قد وصل بعد إلى مرتبة آية الله. ومن أجل تقوية مركزه أعلن الناطق باسم البرلمان وأعضاء هيئة الخبراء وكذلك خطيب الجمعة في طهران إمامي كاشاني أن طاعة القائد الجديد واجب ديني. وفي نفس اليوم الذي انتخب فيه خامنئي قائداً اختير آية الله الأراكي الذي يزيد عمره على تسعين عاماً ليكون المرجع الجديد. وبذلك جرى توزيع المنصبين اللذين كان يشغلهما الخميني، المنصب السياسي والمنصب الديني، على شخصين. وجاء في أول فتوى أصدرها المرجع الجديد أن تقليد المجتهد الميت جائز أيضاً. وبذلك تم إلغاء القاعدة الفقهية

القديمة «لا قول للميت» لصالح الخميني. وهذا يعني أن أقوال قائد الثورة يمكن الاستناد إليها حتى بعد وفاته واستعمالها حجة ضد أي اجتهاد معارض ـ وهذا أيضاً من التجديدات الثورية التي أفرزتها الثورة.

تبيِّن هذه التسويات المعقدة، والتي اتخذت على عجل خلال أيام قليلة، كم كان حساساً الوضع خلال مرحلة الانتقال من القائد القديم إلى القائد الجديد. إلا أن الرئيس رفسنجاني والمرشد الأعلى خامنئي تمكنا من تثبيت مركزيهما وتعزيزهما معاً. لكن ما بقي دون توضيح العلاقة بين تعليمات القائد الجديد والقائد القديم: فهل يستطيع الجديد إلغاء قرارات القديم؟ يحاول أنصار الخميني الأقربون كل ما في وسعهم لترسيخ مكانة القائد الميت ومنع أي انحراف عن خطِّه. في حالة سلمان رشدي اضطر خامنئي إلى تثبيت فتوى الخميني على الرغم من أنه كان قد تبنى في حياة الخميني موقفاً متسامحاً. في بعض الحالات الأخرى تضمنت فتاوى القائد الجديد تعديلات واضحة ولكن بمنتهى الحذر وفي مسائل هامشية: في مايو/ أيار 1992 تم، مثلاً، سحب القرار الذي اتخذه الخميني ضد كل نوع من الموسيقى. لا بل إن تحريم إنتاج وتناول وتصدير الكافيار قد تم إلغاؤه صراحة.

توضح فتوى الكافيار مرة أخرى كيف يعمل الاجتهاد. كان الخميني قد أصدر فتوى حرّم فيها الكافيار، وهو من مواد التصدير الهامة في إيران، وحرّم أيضاً «منتج» الكافيار وهو نوع من السمك. ولم يكتف بذلك بل حرم أيضاً سمك «الكوسج» أو سمك أبو سيف

الذي يعتبر في منطقة الخليج غذاء شعبياً. واستند في تحريمه إلى أن هذين النوعين من السمك «بلا حراشف». لكن السمك الذي لا حراشف له محرم أكله عند الشيعة منذ قديم الزمان، مثله مثل لحم الخنزير. وبما أن سمك الكافيار وسمك أبو سيف لهما جلد فقد حرّم أكلهما الخميني ـ لأسباب دينية بحتة. أدى هذا التحريم إلى توقف أساطيل صيد السمك في بحر قزوين وإلى إغلاق معامل الكافيار. ولكن بعد وفاة الخميني حقق البحث العلمي تقدماً غير متوقع. فقد أعلنت الصحافة الإيرانية أن الخبراء في المؤسسة الوطنية للأسماك قد اكتشفوا أن سمك الكافيار وسمك أبو سيف، على حدٍّ سواء، له «حراشف صغيرة جداً لا ترى إلا بالمجهر». وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام فتوى جديدة. بحكم منصبه صعد خامنئي إلى مرتبة آية الله. إلا أن هذا لم يؤد بأي حال إلى حسم مسألة المركز الديني لقائد الثورة. وقد طرحت هذه المسألة مجدداً عندما توفي أعلى آيتي الله في إيران وهما: الگلبايگاني (1899 ـ 1993) والأراكي (1898 ـ 1994). على إثر ذلك حاول أنصار خامنئي في العديد من الخطب الدينية والبيانات رفع المرشد الأعلى إلى أعلى منصب ديني أي إلى منصب المرجعية أيضاً. إلا أن الاحتجاجات التي جاءت من لبنان والعراق والبحرين ومن إيران نفسها أجبرت قائد الثورة على التراجع واضطر في ديسمبر/ كانون الأول 1994 إلى إصدار بيان أكد فيه أنه لا يسعى إلى تولي المرجعية. وبذلك يبقى أعلى منصب ديني للشيعة غير مركزي، أي موزعاً على عدة أشخاص.

في مايو/ أيار 1997 فاز في الانتخابات الرئاسية بصورة مفاجئة حجة الإسلام سيد محمد خاتمي الذي يعتبر معتدلاً لكنه لم

يستطع الصمود أمام قائد الثورة ذي المكانة القوية والنفوذ الواسع. ففي فبراير/ شباط ـ مايو/ أيار سنة 2000 فاز بأكثرية برلمانية لكنه ما لبث أن خسرها في انتخابات 2004. ولم يزل المتشددون الملتفون حول خامنئي يسيطرون على القضاء ووسائل الإعلام والجيش وأجهزة الأمن ويمنعون أي انحراف عن خط الخميني الثوري.

الفصل الخامس

شيعة خارج إيران

آذربيجان

يعيش في آذربيجان، الجمهورية السوفييتية سابقاً، فقط ستة ملايين شيعي آذربيجاني (من أصل العدد الإجمالي للسكان والبالغ 8 ملايين) ولكن يعيش في الإقليم الإيراني المجاور من جهة الجنوب والذي يحمل نفس الاسم أكثر من 12 مليوناً. والآذربيجانيون شيعة ولكنهم ليسوا فرساً وإنما أتراك. ولغتهم قريبة جداً من اللغة التركية في تركيا.

عند تفكك الاتحاد السوفييتي توقع الناس هنا أيضاً انضمام جمهورية آذربيجان إلى جمهورية إيران الشيعية. وكان هناك بعض المعلقين المتسرعين الذين توقعوا زوال الحدود عند نهر أراكس. غير أن عدداً من اللافتات الكبيرة التي تحمل صورة الخميني لا يكفي لقيام ثورة إسلامية. وعندما تقربت آذربيجان من البلد المجاور تركيا انتعشت من جديد تخيلات توحيد الأتراك. أما في آذربيجان نفسها فقد برزت حركة قومية تحلم بآذربيجان الكبرى ـ أي بدولة تضم الإقليم الإيراني الشمالي. إلا أنه من الواضح تماماً أنه، أيّاً كان

الحاكم في طهران، لن يسمح أبداً بقيام دولة تركية كبيرة ثانية على الحدود الشمالية لإيران. في الوقت الحاضر تناور القيادة السياسية في آذربيجان الغنية بالنفط بلباقة بين روسيا والغرب. وتلعب الدور الأول في ذلك، المصالح الاقتصادية والسياسية. أما الدين فلا يلعب دوراً متميزاً.

لبنان

جنوب لبنان منطقة يسكنها الشيعة منذ فجر الإسلام. وتشتهر مدينة النبطية باحتفالاتها المثيرة يوم عاشوراء مع مسيرات التعزية واللطم حتى الإدماء. إلا أن الشيعة كانوا في نظام التمثيل الطائفي غير المكتوب، الذي تتقاسم بموجبه المجموعات السكانية المختلفة من مسيحيين ومسلمين السلطة منذ الاستقلال سنة 1943، ممثلين بنسبة أقل مما يستحقونه بناء على عددهم. ولكن بعد الحرب الأهلية (1975 ـ 1990) التي أسقطت الهياكل القديمة لتوزيع السلطة والنفوذ استطاع الشيعة، الذين يبلغ عددهم الآن 1,7 مليون نسمة ويشكلون 40% من السكان وبالتالي أكبر مجموعة دينية، إثبات وجودهم وإلقاء وزنهم في كفة الميزان.

وكان رجل دين إيراني من أصل عربي لبناني هو سيد موسى الصدر المولود سنة 1928 في قم الإيرانية كابن لأحد المجتهدين قد تولى سنة 1959 القيادة الروحية للشيعة في جنوب البلاد وجعل من طائفته إحدى القوى القيادية في لبنان. إلا أن مؤسس المنظمة السياسية العسكرية الشيعية «أمل» اختفى سنة 1978 خلال رحلة جوية إلى إيطاليا عند هبوط الطائرة في مطار طرابلس الليبي دون أن يترك

أي أثر. أما المنظمة الشيعية اللبنانية الأخرى، منظمة «حزب الله» شبه العسكرية، التي كان لها في بادىء الأمر على عكس أمل ارتباط وثيق بإيران، فقد أسسها سنة 1982 ـ بعد الغزو الإسرائيلي للبنان ـ السفير الإيراني الأسبق في سورية ووزير الداخلية الإيراني فيما بعد هاشمي محتشمي. وكان حزب الله يتبع نهجاً ملتزماً بأفكار الخميني: الكفاح ضد إسرائيل وتصدير الثورة الإسلامية. وهو أيضاً يقاد سياسيّاً من رجل دين: كان أمينه العام الأول الشيخ عباس الموسوي قد راح مع زوجته سنة 1992 ضحية عملية اغتيال إسرائيلية. خلفه في المنصب الشيخ حسن نصر الله (مواليد 1955)[1] الذي درس في قم. أما الرئيس الروحي لحزب الله فهو آية الله السيد محمد حسين فضل الله المولود سنة 1934 في النجف كابن لمجتهد لبناني[2].

إلى حزب الله تنسب عملية التفجير الوخيمة التي وقعت في سنة 1983 حيث تم تفجير سيارة شحن مملوءة بالمتفجرات على المقر الرئيسي للجيش الأمريكي في بيروت مما أدى إلى مقتل 241 جندياً أمريكياً ـ وكانت هذه أول عملية انتحارية كبيرة في الشرق الأوسط. في البداية كان الارتباط الأيديولوجي والمالي لحزب الله بنظام الحكم الثوري الإيراني كبيراً جداً ولكن شيئاً فشيئاً حدث بعض التحول. ومنذ نهاية الحرب الأهلية اللبنانية 1990 نجح الحزب في ترسيخ أقدامه كحزب لبناني محب لوطنه ومدافع عنه. في سنة 1992 تمثل لأول مرة في البرلمان بثمانية نواب وهو يشارك منذئذٍ بانتظام في الانتخابات البرلمانية. لكنه لم يتخل عن الكفاح ضد دولة إسرائيل.

---

(1) مواليد 1962 [الناشر].

(2) توفي عام 2010 [الناشر].

الهند وباكستان

يبلغ عدد سكان الهند 1,068 مليار نسمة منهم حوالي 117,5 مليون مسلم أي 11 بالمائة؛ وهم سنة وشيعة اثنا عشرية وإسماعيلية. ومن الصعب تحديد عدد كل فئة من هذه الفئات لأن الحدود بينها غير واضحة، إذ إن السنيين أيضاً يشاركون في بعض الأماكن باحتفالات المحرم وشعائر عاشوراء. حسب تقدير الخبراء يشكل الشيعة الاثنا عشرية 10 ـ 15% من المسلمين الهنود أي ما يعادل 11 ـ 17 مليوناً. وهناك منطقتان كبيرتان ذات نسبة سكانية شيعية عالية هما: المملكة السابقة أوذه وعاصمتها لكهنو وفي ولاية أوتّربرادش بين الغانج والهيملايا، ومنطقة دكّان مع المركز حيدر آباد.

تحكم مملكة أوذه منذ 1722م أسرة شيعية كانت تزود الأماكن المقدسة في العراق بكثير من الأموال الوقفية والهدايا. ولم تزل تشهد على ذلك حتى اليوم «القناة الهندية» التي تزود النجف بمياه من نهر الفرات. ولكن بعدما أنهى البريطانيون سنة 1856 المملكة بدأ تدفق الأموال من الهند إلى العراق بالنضوب.

في حيدر آباد كان آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي (العراقي) يتمتع بمكانة رفيعة. وكان ابنه (الذي اغتيل سنة 2003 في النجف) يجمع هناك لصالح أبيه «الخمس».

في باكستان أيضاً من الصعب جداً رسم حدود واضحة بين الجماعات الإسلامية. يعتقد بأن الشيعة الاثني عشرية يشكلون 15 ـ 20 بالمائة من السكان، أي ما يعادل 22 ـ 29 مليون نسمة. بعد تأسيس الدولة الإسلامية سنة 1947 فر كثير من المسلمين الشيعة من

الهند ولجأوا إلى منطقة لاهور في البنجاب وإلى مدينة كراتشي الساحلية مما جعل نسبة الشيعة هنا أعلى منها في أي مكان آخر. إلا أن «بيوت التجمع» (مأتم سراي) لأداء شعائر عاشوراء تمتد بعيداً إلى بلتيستان بين الهيملايا وكراكوروم، في المناطق الشمالية، أي الجزء الذي تحتله باكستان من كشمير. ومن الملاحظ هناك أن شعائر عاشوراء مع اللطم حتى الإدماء متأثرة جداً بالتقاليد الإيرانية. وبعد الثورة الإسلامية في إيران كان لآية الله الخميني كثير من الأنصار في باكستان وخاصة في كراتشي.

العراق

لم يدخل الشيعة إلى وعي دوائر واسعة من الرأي العام الغربي إلا بعدما بدأوا يظهرون في نزاعات مختلفة في الشرق الأوسط كطرف أو كمقاتلين. قبل الثورة الإيرانية سنة 1979 لم يكن أحد ينتبه لهم أو يعيرهم أي اهتمام. ويعود السبب في ذلك أيضاً إلى أن الشيعة خارج إيران كانوا غالباً أقليات عديمة الأهمية على الصعيد السياسي. وحتى في العراق، حيث إنهم من الناحية العددية أكثر من السنة، لم يلعبوا في السياسة أبداً دوراً خاصاً.

وبما أن الشيعة ينتمون في غالبية البلدان إلى المجموعات السكانية المحرومة من الامتيازات فإن هذا هو السبب المباشر لأن نجدهم خلال العقدين الماضيين يشاركون في الصراعات الدائرة حول توزيع السلطة والثروة في الشرق الأوسط: في الكفاح ضد التخلف والظلم والاضطهاد، وفي التطلع إلى أن يكون لهم مكان تحت الشمس أو حصة من كعكة السلطة. وأن تتصرف المجموعات الدينية

كجماعة متضامنة فهذا تقليد قديم في مجتمعات الشرق المقسمة فئوياً عمره مئات السنين: فالمجموعة الدينية هي في الوقت نفسه فئة اجتماعية. إلا أن انقسام مجتمعات الشرق الأوسط إلى فئات مختلفة لا يستند دوماً إلى العامل الديني. بل إن الاختلاف العرقي ـ اللغوي يلعب دوراً مهماً أيضاً، وفي بعض الأحيان أكثر أهمية. فالأكراد معظمهم من السنة مثل خصومهم في تركيا والعراق لكنهم يتكلمون لغة أخرى. أما في لبنان فلا يوجد اختلاف عرقي بين الأحزاب، بل إن جميعهم عرب. وفي بعض الأحيان يكون هناك تطابق في الانتماء العرقي والديني للمجموعة: فالآذربيجانيون شيعة يتكلمون اللغة التركية (أو أتراك شيعة). ولكن هذا لا يشكل القاعدة بأي حال. فالسكان الريفيون في جنوب العراق يتكلمون اللغة العربية مثل السكان السنيين في وسط العراق لكنهم من الناحية المذهبية شيعة مثل الإيرانيين الذين يتكلمون لغة أخرى. أما ولاؤهم السياسي فلا يمكن تحديده سلفاً استناداً إلى انتمائهم العرقي ولا إلى انتمائهم الديني ولا يبقى ثابتاً على مر الأزمان. عندما بدأ العراق في سبتمبر/ أيلول 1980 الحرب على إيران توقع بعض المراقبين الغربيين أن الشيعة العراقيين سيفرون من المعركة ويلتحقون بالطرف الآخر. وعندما لم يحصل هذا ـ على الرغم من أن جزءاً كبيراً من الجيش العراقي يتألف من الشيعة ـ استعملوا لتفسير ذلك «العداوة الأبدية» بين العرب والفرس. لكن هذا التفسير الثاني كان خاطئاً كالتفسير الأول. وبعد حرب الخليج سنة 1991 ثار الشيعة في جنوب العراق ضد نظام الحكم في بغداد ـ عرب ضد عرب ـ وبحثوا عن سند لهم في إيران. لكن المراهنة على تدخل إيران عسكرياً في جنوب العراق لم تتحقق.

فقد كان لإيران أسباب وجيهة ـ سياسية واقتصادية وعسكرية ـ لعدم الدخول في حرب ثانية مع العراق ـ مما خيب آمال كثير من القادة الشيعة.

العراق هو البلد الأصلي للشيعة؛ كانت الكوفة ـ بالقرب من مدينة النجف الحالية ـ أقدم مركز لهم. وفي العراق تقع مقامات ستة من الأئمة الاثني عشر. مع ذلك كان الشيعة هنا حتى القرن التاسع عشر أقلية عديمة الأهمية. فقط حول المقامات المقدسة في النجف وكربلاء كان هناك بعض علماء الشيعة مع عائلاتهم وتلاميذهم، غالباً مهاجرون قادمون من إيران إلا أن المقامات كانت تعيش من الأموال الوقفية التي تصلها من مختلف أرجاء العالم. ولقد ذكرنا سابقاً القناة الهندية التي زودت النجف بالمياه ـ وقف من أمير هندي ووزيره. ولما بدأ الباشاوات الأتراك في بغداد في القرن التاسع عشر بتوطين البدو الرحل العرب في جنوب العراق وحثهم على حياة الاستقرار وجد العلماء الشيعة في النجف وكربلاء حقلاً جديداً لدعوتهم. ذلك أن البدو المستقرين أصبحوا من أشد المتحمسين للأئمة. وبدأ شيوخ القبائل وملّاك الأراضي الجدد يقدمون الدعم المالي للمقامات المقدسة وللمدارس التابعة لها. ونشأت علاقة وثيقة بين رجال الدين الشيعة والوجهاء الريفيين في جنوب العراق عززتها العلاقات القائمة بين الأساتذة وتلاميذهم ثم تمتنت بعلاقات الزواج. ولم تزل هذه العلاقة قائمة حتى اليوم وقد يكون لها دور حاسم في علاقات السلطة المقبلة في العراق.

تحتل النجف بين المراكز الشيعية في العراق منذ قديم الزمان

المكانة القيادية. في سنة 1846م تم الاعتراف بالشيخ محمد النجفي كأعلى مرجع للتقليد. وبعد وفاته سنة 1849 خلفه تلميذه الشيخ مرتضى الأنصاري. . وبعد وفاة الأنصاري سنة 1864 ظل المركز شاغراً فترة من الزمن إلى أن تمكن ميرزا محمد الشيرازي من فرض نفسه كمرجع أعلى. وبانتقاله إلى سامراء سنة 1875م رفع شيرازي من قيمة هذه المدينة التي اختفى فيها الإمام الغائب والتي كانت حتى ذاك الحين عديمة الأهمية.

وتجدر الإشارة إلى أن الشيرازي كان المنتصر في نزاع التبغ الذي سبق ذكره.

بعد إصلاح الحوزة في قم منذ 1924 فقدت المقامات العراقية قيادتها الروحية للشيعة؛ أصبحت إيران أهم من العراق. ومع ذلك كان للشيعة العراقيين في القرن العشرين أيضاً قادة روحيون مهمون. هناك ثلاث عائلات كبيرة تسيطر منذ أجيال على الحوزة في النجف. من عام 1962 حتى عام 1970 كان يقف على رأسها آية الله العظمى سيد محسن الحكيم الذي حاول الشاه محمد رضا بهلوي عبثاً استغلاله ضد رجال الدين المعارضين له في قم. لكن الحكيم لم يقبل توظيفه كأداة لأغراض سياسية. أما ابنه محمد باقر الحكيم فقد اضطر للهرب إلى طهران خوفاً من بطش صدام حسين وأصبح رئيساً لـ«المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق» الذي أسسه هناك. بعد سقوط صدام حسين توقع الكثيرون أن يلعب دوراً حاسماً في العراق المقبل لكنه لما عاد سنة 2003 من المنفى إلى النجف قُتل في تفجير عبوة ناسفة في باحة مقام الإمام علي.

تولى خلافة محسن الحكيم سنة 1970 آية الله العظمى أبو القاسم الخوئي (1899 ـ 1992) الذي كان يحظى بمكانة عالية واحترام كبير خارج حدود العراق أيضاً. كان الخوئي يعيش حسب تقاليد الزهد والتقشف لرجال الدين الشيعة ويتجنب الدخول في المنازعات السياسية وكان يتخذ موقفاً نقدياً من الخط الثوري للخميني. أما ابنه عبد المجيد الخوئي فقد أراده الأمريكيون والبريطانيون أن يكون الطرف المقابل لمحمد باقر الحكيم المؤيد لإيران ولذلك أُعيد بعد سقوط صدام حسين من منفاه في لندن إلى العراق.. لكنه اغتيل في التاسع من إبريل/ نيسان 2003، بعد أيام قليلة من وصوله، في باحة ضريح الإمام علي في النجف.

إلى جانب هاتين العائلتين لآخر آيتي الله عظمى عراقيين لعبت عائلة الصدر دوراً بارزاً في المعارضة ضد صدام حسين. حصل محمد باقر الصدر (1935 ـ 1980) على شهرة واسعة بواسطة كتابيه: «فلسفتنا» (1959) الذي يتضمن نقداً للمادية الماركسية، و«اقتصادنا» (1960) الذي يضع فيه نظاماً اقتصادياً للدولة الإسلامية المقبلة. في إبريل/ نيسان 1980 أُعدم الصدر مع أُخته بنت الهدى التي كانت كاتبة مشهورة أيضاً، وذلك بعد أن كان قد اعتبر نظام حكم البعث الذي يرأسه صدام حسين كافراً دينياً. ولما أجبر الأمريكيون وحلفاؤهم في حرب الخليج الثانية (حرب الكويت) سنة 1991 صدام حسين على الانسحاب من الكويت لكنهم لم يسقطوه استغل الدكتاتور الفرصة للانتقام من الشيعة في جنوب العراق الذين ثاروا ضد نظام حكم البعث متوقعين سقوطه. فشن عليهم صدام حسين غارات جوية أدت إلى إلحاق ضرر كبير بمقامات الأئمة وأمر

بإعدام كثير من الناس في الجنوب. لكن عائلة الصدر الشديدة التشعب تابعت مقاومتها للنظام؛ في سنة 1999 حدثت مجدداً ثورة مسلحة للشيعة عندما قتل صدام حسين ابن عم الصدر، آية الله محمد صادق الصدر، مع اثنين من أبنائه. أما الابن الثالث الذي بقي على قيد الحياة الشاب مقتدىٰ الصدر فهو الذي يقود حالياً القوى المتطرفة شبه العسكرية. إذ إن الجيش الذي شكله والمسمى «جيش المهدي» يشتبك في معارك مسلحة مع قوات الاحتلال الأمريكية وخاصة في النجف التي اتخذ منها مقتدى الصدر في بادىء الأمر مقراً رئيسياً له وفي مدينة الصدر التابعة لبغداد والمسماة باسم أبيه (كان اسمها سابقاً مدينة صدام). يزيد عدد سكان هذه المدينة على مليوني نسمة جميعهم تقريباً من الشيعة الذين هربوا خلال حرب الخليج الأولى 1980 ـ 1988 وحرب الخليج الثانية 1991 من جنوب البلاد، وهي تشكل إلى جانب ضاحية الكاظمية ـ التي تحتوي على ضريحي الإمامين السابع والتاسع ـ التجمع الكبير للشيعة في العاصمة بغداد التي أصبح الشيعة يشكلون غالبية سكانها.

الشخص المنافس لمقتدىٰ الصدر ذي التوجه العسكري هو آية الله علي السيستاني (مواليد 1930) الزعيم الروحي المشهود له بالعلم والتقوى والرئيس الديني لحوزة النجف، وهو من مواليد إيران لكنه تولى تركة أستاذه الخوئي (توفي 1992) في العراق. صحيح أن السيستاني اعتبر «مجلس الحكم» الذي عينته الولايات المتحدة الأمريكية والحكومة الانتقالية (منذ 28 مايو/ أيار 2004) غير شرعيين لأنهما غير منتخبين وطلب من الشيعة عدم المشاركة فيهما لكنه تفادى حتى الآن الدخول في نزاع مسلح مع قوات الاحتلال.

وبعد نشوب معارك عنيفة في النجف بين «جيش المهدي» بقيادة مقتدى الصدر والقوات الحكومية العراقية المدعومة من الأمريكيين استطاع آية الله العظمى علي السيستاني التوسط لوقف إطلاق النار. وبناء على هذه الهدنة أخلى مقتدى الصدر ورجاله في 27 أغسطس/آب 2004 مقام الإمام علي، الذي كانوا قد احتلوه، وغادروا المدينة. إلا أن المعارك اندلعت مرة أُخرى فيما بعد في مدينة الصدر وفي أماكن أُخرى. صحيح أن إياد العلاوي، رئيس الوزراء الأول للعراق الجديد، شيعي أيضاً لكنه لا يستطيع الاعتماد على دعم رجال الدين.

نظرة إلى المستقبل

إن الدور السياسي القيادي لرجال الدين له عند الشيعة في لبنان والعراق أسباب مختلفة عن تلك التي لدى رجال الدين الإيرانيين. في جنوب لبنان كما في جنوب العراق يعيش الشيعة في مناطق ريفية متخلفة. هنا كان رجال الدين غالباً «المتعلمين» الوحيدين وبالتالي المؤهلين للعب دور القائد المثقف والطليعي المناضل. يضاف إلى ذلك صلاتهم العالمية المفيدة. ونذكّر هنا بأن العلماء اللبنانيين كان لهم دور كبير في نشر المذهب الشيعي في إيران في القرن السادس عشر. وما زال عدد غير قليل من عائلات الملالي الإيرانية يتحدثون بكل فخر واعتزاز عن أصلهم العربي اللبناني. علاوة على ذلك فإن رجال الدين الشيعة يتمتعون بدرجة عالية من القدرة الحركية. ففي المعاهد التعليمية العليا عند المقامات المقدسة ومراكز الزيارة، وخاصة في النجف وكربلاء ومشهد وقم، يتلقى طلاب من جميع أنحاء العالم تأهيلهم العلمي، يدرسون معاً ويعقدون الصداقات ويتزوجون في كثير من الأحيان من العائلات المحلية. وهكذا يشكل العلماء الشيعة شبكة كثيفة من الصلات والعلاقات تتجاوز حدود الدولة الواحدة ويمكن الاستفادة منها عند الحاجة سياسياً أيضاً.

الاحتجاج الاجتماعي، والمقاومة السياسية، والثورة، والانفعالية والمطالبة بالمشاركة في السلطة، وأيضاً التطلع إلى الهيمنة الإقليمية ـ كل هذه الأمور يمكن وضعها في صيغ مستعارة من التقاليد الشيعية. فالتاريخ الديني للشيعة يحتوي على كثير من النماذج والحكايات المعبرة عن الألم والمقاومة والتضحية، والتي يمكن إحياؤها بسهولة وهي تتميز عن الإيديولوجيات الثورية ذات المنشأ الغربي ليس فقط في أن التجار في البازار والفلاحين في أصغر قرية يفهمونها، وإنما أيضاً في كونها غير مستوردة وتستند إلى مبدأ العدالة الذي يعد من القيم الأساسية في الإسلام. وفي فكرة التبشير بعودة الإمام الغائب الذي سيقيم مملكة العدل على الأرض يملك الشيعة يوتوبيا جبارة يمكن استغلالها للتعبئة السياسية.

نسبة الشيعة الاثني عشرية
من سكان عدد من البلدان الإسلامية
(أرقام تقديرية)

البلد	عدد الشيعة (مليون)	النسبة المئوية
إيران	٥٧	٨٥
باكستان	٢٢ ـ ٢٩	١٥ ـ ٢٠
العراق	١٤,٥	٦٠
الهند	١١ ـ ١٧	١,١ ـ ١,٦
آذربيجان	٦	٧٥
أفغانستان	٦	٢٠
سورية	١,٨	١٠
لبنان	١,٧	٤٠
المملكة العربية السعودية	١,٢	٥
الكويت	٠,٧	٣٠
البحرين	٠,٥	٧٠

الإجمالي دون الهند 112,9 مليون.

يمكن أن يزيد العدد الإجمالي ـ مع الهند ـ على 120 مليون نسمة.

* * *

من مقدمة الكتاب

لم يمض سوى ما يقارب ثلاثين سنة على دخول الشيعة إلى وعي قطاع عريض من أوساط الرأي العام العالمي وذلك عندما أسقط الثوريون الشيعة سنة 1979 شاه إيران وأسسوا جمهورية إيران الإسلامية ودخلوا في الوقت نفسه في صراع مع الغرب. وبعد وقت قصير حدثت نزاعات أخرى في الشرق الأوسط كان الشيعة منخرطين فيها: الحرب الأهلية في لبنان التي تدخل فيها الشيعة عسكرياً بعد الغزو الإسرائيلي سنة 1982؛ والحرب الأهلية في أفغانستان التي كان يشارك فيها مجاهدون شيعيون أيضاً؛ والنزاع حول جبل قره باغ الذي وقف فيه أرمن شيعيون في مواجهة آذربيجانيين شيعيين؛ ثم ثورات الشيعة في جنوب العراق ضد صدام حسين بعد حرب الخليج الثانية 1991 وبعد 1999. وبعد سقوط صدام حسين نتيجة التدخل الأمريكي البريطاني سنة 2003 اتضح فجأة أن الشيعة يشكلون أكثرية سكان العراق وأنه من حقهم المطالبة بحصة مناسبة من السلطة في الدولة العراقية المستقلة المقبلة.

لا أن موضوع هذا الكتاب ليس الثورة الإيرانية ولا السياسة في الشرق الأوسط بصورة عامة وإنما المذهب الشيعي. غير أن التشابك الوثيق بين الدين والسياسة في الشرق الأوسط يدعونا مرة بعد أخرى إلى وضع الأحداث السياسية في مركز البحث. من الطبيعي أن الثورة الإيرانية تشكل أيضاً جزءاً من تاريخ الإسلام الشيعي وبالمقابل فإن الأحداث الجارية في إيران تبقى دون معرفة المذهب الشيعي غير مفهومة. ومن الملاحظ في هذا الصدد أن الأحداث السياسية تؤدي إلى تحولات في الدين أيضاً وتدفع تطوره التاريخي نحو الأمام.

نشأ المذهب الشيعي في العراق الذي لم يزل حتى اليوم أحد البلدان الأساسية للإسلام الشيعي. ففي العراق وقعت الأحداث الحاسمة في تاريخ الألم الشيعي وفيه توجد الأضرحة المقدسة لستة من الأئمة الاثني عشر، وهنا تطورت علوم الدين الشيعية في العصر الوسيط. فالشيعة هي إذاً في الأصل ظاهرة عربية كالإسلام نفسه والجزء الأكبر من مراجعها مكتوب باللغة العربية، ومن مؤلفين إيرانيين أيضاً؛ لم تزل اللغة العربية حتى اليوم اللغة المعتمدة لدى علماء الدين الشيعة في جميع أرجاء العالم. أكثر من نصف العراقيين شيعة، وهم يعيشون بصورة رئيسية في جنوبي البلاد (نحو 15 مليوناً). أما في إيران فقد بدأ انتشار المذهب الشيعي مع تأسيس المستعمرة العربية قم في القرن الثامن الميلادي، لكن الشيعة بقوا هناك فترة طويلة من الزمن أقلية.

ISBN 9781900700993
9 781900 700993

دار الوراق للنشر
AL Warrak Publishing LTD